دانتيلا تحت الشمس(1)

محمد علي اليوسفي*

إذا كُنْتَ قادراً . . . فخُذْني

أعود إلى الشّوارع. أبحث عن وجه. وفجأة، آه ! من أرى ؟ من هذا ؟ القزم سهلون ؟
- هذا أنت يا سهلون !
- من ؟
- ألستَ سهلون ؟
- أرجوك ، أنا المواطن جمعة التواتي؛ لا تسخر! هكذا خلقني ربّي !
- لا شكّ أنك غيّرت اسمك كالعادة .
- اسمعْ ! من الأفضل أن تعود إلى بيتك فوراً !
- لماذا ؟
- حتى لا تندم .
- وإذا لم أتركك ؟
- أكسر خشمك بوثبة واحدة؛ هيّا، اتركني !

عدتُ. وجدت دليلة الدلّولة تنتظرني . تراقصت أمام عينيَّ. قالت لي : «لم آت طلباً لأجرة البيت، صدّقني!»، دخلتْ معي لتتفقّد بيتها. كلاّ ، لتشمّ بيتها، وتدسّ أنفها في الزّوايا والكوى. تريد أن تعرف من يسكن معي، لأنها تعرف أنّ هناك من يسكن معي.

- لا يسكن هنا أحدٌ غيري.
- حتّى في الليل ؟
- حتّى في الليل.

- الحمد للّه طمْأَنتني .
- خفت من مستأجر سرّي؟
- بل منَ مستأجرة !
- لا آتي بالنساء إلى هنا .
- ومن سألك عن ذلك ؟ أقصد . . .
- تقصدين الفرنسية ؟
- الحيّ كله يغلي بالشائعات حول البيت .
- ربّما لأنّ الحيّ ميت .
عندئذ وضعتْ يدها على خاصرتها وتمايلت بدلال :
- بمن فيهم أنا ؟
- ربّما كنت الحيّة الوحيدة . . .
- لماذا ؟
- لأنّك تسمحين للموتى أن يسكنوا هنا !
ازداد اهتزاز جذعها :
- وهل أنتَ ميّت ؟
- أنا كما ترينني .
وضعتْ يدها على خدّها :
- إذا أردتَ الحقيقة ، أنا أجدك حيّاً وميتاً في وقت واحد .
- حتّى الموتى يرونني كذلك .
استغربتْ إجابتي مرّة أخرى وردّت بحدّة :
- تقصد أنني ميّتة ؟
- أبداً . . .
- لعلّك ترى الموتى ؟
- نعم أراهم وأبحث لهم عن أجساد .
- وهل تجد من يعطيك ؟
- لا أحد يعطي ؛ أنا آخذ !
تقدّمتْ نحوي خطوتين وقالت :
- إذا كنتَ قادراً . . . فخذني !
تراجعتُ إلى الوراء قليلاً وخاطبتها بإصبعي :
- تأخذينني . . . لا آخذك .
قالت محذّرة :
- لستُ كما تتصوّرني .
- أتصوّرك كما قد لا تتصوّرين نفسك .

– وتعجبك صورتي ؟
– كثيراً .
– خذها إذاً !
– أخذت ما أريد منها .
– تأخذها ولا تأخذني ، ماذا أعجبك فيها ؟
– لَحْماً للفراغ !

القزم هو الذي جعلني ألتحم بها ، فلا أملأ ثغرة أخرى في جسد المرأة التي أصنعها . لكنني أخذت من دليلة قدرة عظامها على هتكي وعصري ، فيما القزم يتراءى لي ضاحكاً ، راقصاً ، قافزاً حتّى سقف العشيقة الفرنسية . القزم قادر على سرقة أحلام الآخرين . يسهر ليلة كاملة من أجل حلم فيه حبّات كَرَز . لذلك أراقبه وأترك دليلة ؛ ثم أشعر بلذّة العودة إلى ماضٍ متقطّع غادرني مع دليلة قبل أن يأتي القزم . أعود إليها ، لقدرة عظامها على إنقاذي من القزم .
– أين هو القزم الآن ؟
– فتح الباب وغاب .
– إلى أين ذهب ؟
– ذهب لمقابلة أميركي يسجّل السِّيَر القديمة .
– وهل وجده ؟
– وقف أمام المرآة ليجهّز نفسه للمقابلة فأصابته الغصّة التي تسبق كلّ شيء .
– متى يعود ؟
– لن يعود . . . لأنّه وجد المدينة فارغة من سكّانها ، فيما الآلات تعمل . . .
– طاحونة بلا قمح . . .
– قمح بلا طاحونة . . .
– أين سينام ؟
– ذهب إلى مقبرة ، ليحفر حفرة صغيرة على شكل جرّة ، تحت شجرة خرّوب . . .
– سيبحث عن كنز ؟
– سيترك بقايا شموع محترقة حول الحفرة ، فيأتي الناس ، ويتساءلون عمّن وجد الكنز ، وكالعادة لا يجدون له أثراً . . .

صفّق القزم وقفز ثلاث قفزات في الهواء

استعدتُ عملي . هذا أمر يدعو إلى الاطمئنان . لكنني صرت ألجأ إلى تمويه اتّجاهاتي حتّى لا يلتحق بي القزم إلى دار الكاتب . صار طريقي إلى عملي أصعب من أيّة مناورة أخرى ، وأيّ تمويه هو مجرّد تغيير في توضيح معالم الطّريق إلى القزم .

ارتطم بي وأنا أحاول السَّيْر مواربةً :
- سهلون ؟
- قلت لك أنا جمعة التّواتي . يا أخي ، لماذا لا تتركني ، لماذا تناديني بهذا الاسم؟ يبدو أنك وحيد وتبحث عن صديق . . أليس كذلك ؟
- اسمع يا سهلون ، أحتاج إلى رؤية مريم . . مرّ زمن طويل . . .
- أنت عاشق، إذاً، الآن فهمت !
- لكنّها . . .
- أعرف . . . أنتَ تتعلّق بالصّورة ثم تعود لتستَجْليَ البريق في حواشيها .
- ما معنى ذلك ؟
- معنى ذلك أنك تحبّ وترى أنك تحبّ .
- نعم .
- لكن الحبّ ليس هذا . . .
- إذاً . . . ؟
- الحبّ هو أن ترتمي بُمْ ! بُفْ ! طرطقْ ! غاطساً فيه من دون أن تراه . فلماذا تبحث له عن عين أخرى؟
صفّق القزم وقفز ثلاث قفزات في الهواء ثم قال لي :
- خذني إلى دار الكاتب الآن !

في دار الكاتب تنفّس القزم بقوّة ناريّة من منخَرَيْه

أسراب العصافير تحلّق في موجات رماديّة داكنة . تعلو وتنزل قبل أن تحين لحظة الانقضاض على قلب المدينة المتناوم . يبتعد سرب ويلتحق به سرب آخر . تدخل الموجة في الموجة من دون اصطدام . تنتظر مجيء موجة أخرى .
الناس يمسحون ثيابهم ورؤوسهم . المتسكّعون يراقبون المشهد . سائحة أغلقت فمها فجأة ثم بصقت .
قفز إلى كتفي وبدأ يهذي :
- تريد الرؤية ولا تستطيع . تريد الفهم ولا تستطيع . تريد الإمساك بامرأة وتفشل . أعرف أن ما ينقصك الآن هو أُذْن وسطى . لديك في بيتك كلّ شيء إلا الأذن الوسطى . أنتَ لا تتكلّم الآن ، لأنك تخشى ألا يجد صوتك وجهة يقصدها . لا تهتف ولا تسجّل أرقاماً، لأنك تخاف من جهاز الهاتف . وفي المترو تقف دائماً في الدائرة الرابطة بين عربتيْن حتّى تحسّ بالأرض تدور ولا تمشي . في السّينما ، تغيب ثم تخرج لتصطدم بمرآة تواجهك أو بلّور لا تراه ، لأنك تتساءل عن الصّورة كيف تنتقل في الهواء ، عن الصّوت والأسلاك . . . وبعد ذلك لا تشاهد التلفزة كما يفعل الناس الأسوياء الذين يتركونها تدخل إلى بيوتهم ، بل تتعرّى لها وتغمض عينيك ، كي تقول إنها تشاهدني وتراني . أنت الآن تتكلّم ، بل تبحث للمرأة عن أذن وسطى . متى نصل إلى دار الكاتب؟ لماذا تغيّر اتجاهاتك ؟
أخذتُه صاغراً . ظلّ يطنّ في أذني ويراقب الطريق . وعندما وصلنا إلى الباب ، قلت له محذّراً :

– اسمعْ يا سهلون ! لا تتسبّب لي في مشاكل ، أريد أن أعمل ولا أُطرد !
– لا تخفْ ! لن أحرجك ، سوف أتسلّل ، فلا يراني أحد أدخل معك .
تسلّل القزم فعلاً . استغلّ فرصة دخول أشخاص وخروج آخرين . اتجه إلى القاعة الكبرى واختار المائدة الأولى قبالة باب المطبخ . لزم الهدوء في البداية متظاهراً بمشاهدة صور التلفزة وسط الضّجيج . وبعد أن كدّس زجاجات البيرة بجانبه همس لي : «الليلة آتيك بالعينوس من أذنه !»
كان الكُتّاب يتساءلون : «إنه لا يذهب إلى التواليت مطلقاً ! أين يخفي الكمّيات التي يعبّها ؛ ابن الكلب؟» ، وعندما دخلتُ القاعة طلب منّي زجاجة أخرى بمنتهى الأدب .
– مَنْ سيدفع ؟
– الشعراء !
– سأدفع أنا ، إذا لزِمْتَ الهدوء ولم تفضحني !
– ألا تثق بي ؟
– لم أثق بك صاحياً ، فكيف وأنت تعانق هذه القوارير ؟
صار يطلب القارورة إثر القارورة ، وأنا أعدّ القوارير فأسكر ، لكنّه حافظ على توازنه ؛ ابن الملعونة ! ولم يقطع هدوءه إلا تجشّؤه بصوت عالٍ :
– هات الأكل !
– ماذا تفضّل ؟
– قلْ ماذا أعددتم في المطبخ حتى أعرف ما أفضّل !
– كوتليت ، عجّة ، حوت ، إسكالوب . . .
– الكوتليت ضلعان أو ثلاثة ، العجة عجّة ، الحوت سمكة ، والإسكالوب شريحة ديك رومي لا تشبع قطّة . . . هاتهم كلّهم !
– ومن سيدفع يا ولد الـ . . .
– القاصّون والروائيون . ولا تنسَ الفواكه ، أريد دلاّعة كاملة !
– ومن سيدفع يا جمجمة البطّيخة ؟
– النّقّاد !
– وماذا تركتَ للمسرحيين يا . . . قرد ؟
– موعدنا معهم قريباً !
بدأت القاعة تمتلئ . عمّ الضّجيج والدّخان ، فغمرا القزم ، فيما معلّمي يحذرني للمرة الألف : «من أين جاء إصبع الكارثة هذا ؟ هل هو كاتب ، أيضاً؟ هل أنتَ متأكد أنه سيدفع ؟ انتبه ! سيكون كلّ شيء على حسابك إذا لم يدفع ! وإذا لم تدفع أنتَ أخصم لك المبلغ من راتبك!»
انتشى الشمبانزي وناداني ليهمس في أذني :
– من المستحسن أن يعود المرء إلى التّدخين في هذه الكارثة ، ولا يبقى متلقّياً سلبيّاً . . .
أردت التخلّص بهدوء :
– اسمعْ ! التّدخين مضرّ كما تعلم . . .

وقف على الطاولة وصاح :
- أريد سيجاراً فاخراً !
- لا أحد يدخّن السيجار هنا .
- أريد أن يعمي دخاني دخانهم .
- اهدأ !
- اَذهب واشتر لي !
ارتَبكتُ . خفتَ . تردّدت . ولّما لاحظ ذلك، أمرني بالانصراف، فبقيت أراقبه من وراء الباب . عاد إلى الجلوس . هدأ قليلاً .
كان الحاضرون يقطعون حواراتهم الصّاخبة، فيرمقونه بنظراتهم، ويهمسون، ثم يضحكون . فجأة ضرب بجمع يده ضربة مدوّية على المائدة، فانكسرت قوارير، واهتزّت صحون ، وطارت ملاعق . خيّم الصّمت . أطلّ القزم من وراء مائدته واقفاً، ثم صاح :
- أنا أفخم شاعر في هذا البلد !
تعالت الهمهمات والضحكات، وبعض «الفصوص»، أيضاً. وبدأت التّعليقات ترشق القزم من كلّ اتجاه :
- يا أفخم شاعر ، لماذا لا يظهر رأسك من وراء الطّاولة ؟
- شنّفْ آذاننا يا قزم !
- ما هي مؤلفاتك حتّى الآن ؟
- شعرك عمودي أم حرّ ؟
- أَسَمعنا صوتك مرّة أخرى !
- لك زجاجة على حسابي .
تنفّس القزم بقوّة ناريّة من منخريْه . نظر عبر فسحة بين خدّه وأعلى مسند الكرسي، وقال :
- شعري في أذني الوسْطى . العالم ممتلئ بأصوات خفيّة لا تلتقطها إلا الأذن الوسطى . رأسي هنا . مؤلّفاتي تصدَر تباعاً (ضرطات متلاحقة) شعْري عموديّ إذا انتصبتُ ، حرٌّ إذا جلستُ ، منثورٌ إذا استرخيتُ . . . أريد سيجاراً فاخراً !
تجرّأ شاعر، وأشار إلى جزء من بدنه، فردّ القزم :
- أشعله لي أوّلاً !
ضحك الجميع . وقفوا . تحلّقوا حول القزم . صعد القزم فوق المائدة، وبدأ يغنّي :
يااا . . . شَمْـ . . . سَ القَرا . . . . ميد . . . . يا عيني
يا . . . نور المحرومين . . . يا عيني . . .

ثم ترك الحضور، في هرج ومرج، وانسلّ بين سيقانهم وقواريرهم . هرب من دون أن يدفع شيئاً . وترك خلفه سلسلة من الضرطات . ما ذنبي أنا؟ ما علاقتي بالقزم، حتّى يطردني معلّمي؟

قزم يائس في البنوك ، ذو عينين باردتين من القسوة

اختفى القزم في المدينة. كتبت عنه الصّحف في صفحاتها الأولى، وفي الصّفحات الثقافيّة:
«قزم مُتَفَلْسف يقلب دار الكاتب رأساً على قدمين!»
«أكبر شاعرَ في تونس يظهر ليلة واحدة!»
«البحث عن القزم العجيب ما زال متواصلاً»
«العثور على صندل القزم في شاطئ سيدي بو سعيد»
«رجال ضفادع متورطون، في علاقة ما، بالقزم؟»
ولا أحد، طبعاً، كشف الحقيقة.
«من يستطيع وصف المقصّ؟»، سأل الكُتّاب متحدّياً. فأجابه أحدهم: «آلة لقصّ لسانك!»، وأشار إلى موضع آخر.
أعادني إلى طفولته الأولى: «صار أبي يحملني ويضعني في جيبه، لأنني لم أولد قزماً فقط، بل صرت قادراً على التقلّص كلّ يوم، فتزداد أسئلتي. ذات ليلة نسيني في جيبه. تركتُ أسئلة الموت والحياة حتّى لا أتقلّص أكثر وأعود إلى بطن أمّي، أو أسأل أبي أسئلة قزم حقيقي:
- ماذا تفعل مع أمّي العارية؟
- أهزّها حتى تنام...».
وأوصلني إلى تراكم خبرته: «لابد من المحافظة على علاقة صراع مع العالم، نظراً لحاجتنا الدّائمة إلى إثبات الهُويّة. لذلك لابدّ من أساطير الأجداد».
يمشي وأصداء الأمكنة في أذنه الوسطى. يتبجّح بدخول جيوب النّكرات وبيوت المشاهير: «أعرف أزواجاً لا يفرّق بينهم سوى الزّواج. عندما تحدّثك دليلة، ابتسمْ لها، ولا تنصتْ إليها، لأن سرّها الوحيد هو السرّ الذي تجهله. ذات مرّة أدخلتني امرأة إلى الجنّة. قالت لي: «تفضّلْ! من هنا!» وأشارت إلى بابها. دخلتُ من باب الجنّة فوجدت نفسي أقفز على لهب الجحيم. النّساء شياطين معطّرة بالغواية. مرّةً وجدْتُ نفسي محبوساً مع امرأة وقطّة وذبابة. بقيت أنتظر المرأة، وأراقب القطّة والذّبابة. ماذا كنت أنتظر؟ كنت أنتظر انتهاءهن من الانصراف إلى زينتهنّ وقيافتهنّ. قررتُ أن أمسك بالمرأة من أذنيها لأنّ كلّ امرأة تخفي أرنباً، فاكتشفت أن عمرها تجاوز الخمسين. هل تدري ماذا فعلتُ؟ ينبغي أن تفعل ذلك مع دليلة، عليك أن تستبدلها بامرأتين، كلتاهما في سن الخامسة والعشرين، على أن تكون محارباً ذكيّاً وداهية، لأن القلاع لا تؤخذ إلا من نقاط ضعفها السرّية... أما إذا كنت تصرّ على مريم، وتسعى إلى إعادة تشكيلها كما تريد، فإنّ عليك أن تبدأ من هنا...».
اللعين! يرقص في كلّ بلد رقصتَه، ويأتي ليدمّرني!
بعد أسابيع فتحتُ إحدى الجرائد فشدّني هذا الخبر: «تُحقّق الشرطة حالياً في سلسلة من عمليات السّطو على المصارف نفّذها أغرب لصّ في التاريخ لا يزيد طوله على ثلاثة أقدام، ويتنكّر في هيئة طفل صغير. وفي كلّ مرّة يسطو فيها هذا اللصّ على أحد البنوك يدخل إلى المبنى وهو يحمل سلاحه علناً، ويمرّ أمام رجال الأمن الواقفين قبالة البنك من دون أن يرتابوا فيه ولو لبرهة، لأنهم يحسبونه طفلاً يلهو. كان هذا اللصّ الجريء يرتدي ملابس راعي بقر، ويعتمر قبّعة عريضة من الطّراز المكسيكي تُخفي وجهه، ويمتطي عصاه مثل حصان... وفي حركة خاطفة يخلع قبّعته ويشهر سلاحه في وجوه الناس، فيدركون أنّ الواقف أمامهم ليس طفلاً، بل هو قزم يائس

ذو عينين باردتين من القسوة !
أمّا أسلوب الجريمة فقد كان متماثلاً في حوادث السّطو الخمسة، حيث يأمر اللصّ الصّغير الصرّافين بوضع الأموال في قبّعته ذات الحواف العريضة ويُولي الأدبار . . . لكن بعد أن «يوقّع» على جريمته برقصة عجيبة . وذكر شهود عيان أنّ هذا اللصّ الظّريف يقوم بوضع القبّعة المملوءة بالأموال على الأرض، ليغنّي بعض المقاطع من أغنية غريبة، وهو يجري حول القبّعة في فرح طفوليّ، ويضحك بصوت عالٍ مردّداً :
«يا شمس القراميد، يا عيني . . .
يا نور المحرومين ، يا عيني . . . »
وقال أحد ضبّاط الشرطة إنّ هذا اللصّ يبدو كما لو كان لا يكتفي بسرقة الأموال، بل يتحتّم عليه أن يقوم بإذلال مَنْ سرقهم . . . ويتّفق الاختصاصي النفسي ، الدكتور «ج . ك . » الذي قام برسم صورة نفسانية لهذا اللصّ، مع رأي قائد الشرطة؛ إذ يقول الدكتور «ك» إنّ هذا الرّجل يتملّكه شعور بالمرارة من قصر قامته، ويريد أن يسخر من أصحاب القامات الطبيعيّة لشعوره بأنّهم قد سخروا منه طوال حياته . ويستطرد الدكتور «ك» في شرح أبعاد نفسيّة اللصّ القزم قائلا : إنّ النّقود لا تشكل إلاّ جزءاً من الرّضى الذي يحقّقه من جرائمه . ولكنّ دافعه الأكبر هو الإثارة عندما يسرق أشخاصاً من ذوي القامة الطبيعيّة . وهذا الأمر يجعله يحسّ بأنه «رجل كبير» . وحتّى موعد إلقاء القبض عليه سوف يواصل سطوه على البنوك والاستمتاع بفعلته . . . الطّريف في الأمر أنّ سائحة أمريكية التقطت لهذا اللصّ صورةً، قبيْل لحظات من إقدامه على تنفيذ جريمة السّطْو الثالثة . . . وكانت هذه السائحة تعتقد أنها تلتقط صورة لطفل ظريف يرتدي زيّ الكاوبوي . . . » .

العبْ بعيداً يا جابر !

أعود ليلاً إلى أمكنتي السرّية . ألمس حافة النّافذة المطلّة على أصابعها متراقصة على الجدار . أقطع الشّارع وأقصد منعطف الزّند العاري . أستنشق صدر منتصف الليل، أربّط على منزلق ظهر الواحدة، وورك الثانية ليلاً . يلمع في ليلي برقُ النّهد ونَصْل الفخذ . أحمل ثماري الليليّة إلى أروقتي المظلمة، قناديل طريق .
أسلّم جسمي للصُّور، فتفتح فيه ثغرة . أعود . أضع صوىً جديدة وعلامات، لقدميَّ ويديَّ، لأنفي وأذنيَّ . خطاي تتناوب على اللّمس والشمّ. أذناي على أطراف أناملي . عيناي تفترشان حركة جسدي . أهرب سدىً من قولة للقزم، ترنّ في أذني الوسطى : «عش الآن بكلّ حاسة، ولها، كأنك فاقدُها غداً» . أسكبُ ماءً لأخرج القزمَ، بعوضةً، من أذني الوسطى . صرت أسدّ ثقوب الأبواب : فاجأني نصلٌ حارق من ثقب ملتهب، كنتُ أتلصّصُ من خلاله على المرأة ذات البشرة الحليبيّة . آه . . . عيني !
اكتملت المرأة في بيتي . سرقتُ لها أذناً وسطى . لها جسد متسامح ومتعجرف في آن . روح لا يسبر لها غور . تعطي جسدها لأفتى الشباب، وتهيمن على أرواحهم . تحمل الشّهوة في لحمها والحبّ في حقيبة يدها . تتقلّب في الأمكنة والأزمنة : يحوّل وجهتها شخص، أو ينقضّ عليها أعور بقضيب، ويقتلها . لا أصدّق أنها تموت . أعدُها بحياة أخرى . تنشر الجرائد صورها : «المطربة الكبيرة تسافر إلى الشرق! صعود ابنة القرية إلى قمّة الأضواء!»، أحاول الاقتراب منها . تحرقني «إنْ شئت ابعثْ لي بكلمات أغنية جديدة . وها هو ذا رقم صندوق البريد فقط»، فيما هي تسكن بيتي وتقلب صحوني وتشدّ خطاي ثم تظهر على شاشتي، وتقول لي : «ضَعْ يدك

على ثديي يصرْ ثدياً. ضع يدك على قلبي يصرْ قلباً. ضع يدك على فخذي. . . »، فأرفع يدي في المرآة ولا أراها.

- افتحْ يا جابر! أعرف أنك هنا وتؤلمني حالتك. افتح!
- لم يعد عندي نقود.
- لا يمكنك أن تسكن إذاً. أريد أُجرتي.
- لقد دفعت أضعاف الأضعاف.
- لمن؟
- لصاحبة البيت.
- لمنْ؟
- لصاحبة البيت؛ جانيت.
- بسم الله!
- صاحبة البيت الأصليّ التي تسكن في السّقف.
- أعوذ بالله!
- طالبتْ بالأجرة ثم صارتْ تعرف أين أخبّئ ما أوفّره.
- عافانا الله!
- في المرة الأخيرة لم تجدْ مالاً فأخذت عيني.
- لطفك يا ربّ!
- وهدّدتني بأفعال أخرى.
- أفعال أخرى؟
- لم تَذْكُرها. هدّدتني مطالبة بثمن معاشرتي لها، والانقياد لطلباتها.
- وما هي طلباتها يا ترى؟
- قالت إن طلباتها تنبع من ملكيّتها المطلقة للبيت؛ من دمها.
- العبْ بعيداً يا جابر، أريد أُجرتي.
- لَا أملك مالاً.
- نتّفق إذاً. . .
- كيف؟
- فقدتَ عيناً، أنا عينك التي فقدت. . .
- ما زلت أرى. سوف أزيل الضّمادة وأرى.
- ليكنْ! دَعْني أساعدك على الاستحمام؛ هذا واجبي منذ اليوم!

دَانْتِيلاً

أتدفّق مع السّوائل. أتشكّل من جديد. أتحوّل. أملأ الفراغات وسراديب الهواء. أتفحص الثّقوب. تدقّ جانيت

على السقف :
- لماذا خُلقتُ أنثى ؟
- الشّجرَة أنثى يا جانيت . أيّ شيء تسمّينه يكون ذلك بكلمة . الكلمة أنثى . الأرض مؤنّثة . يُذَكَّرُ المطر عندنا لأنّه جاحد . جمعه مؤنّث . يؤنّث عندكم لأنه يهطل بسخاء . الصّحراء مؤنّثة الباطن . البحر حارس لموجاته وأشناته وعواصفه المؤنّثة . قضيب الذّكر أداة والأنثيان للإنجاب ، يا جانيت .
هدأتْ جانيت . فهدأتُ بدوري . وعندما طلع الصّباح هجمتُ على الجدار . طرقت على جانيت وقلت : «لكنَّ مَنْ يسمعك تشتكين في الليل يقول : من المستحسن أن يكون المرء ذكراً!» ، لذلك سوف تعود الليلة . «من المستحسن ياَ جانيت أن يكون المرء ذكراً ولا يسكن سقفاً . من المستحسن ! هل سمعت؟» ، تركْتُها وخرجتُ متسلّلاً . راقبت القطط ، ثم اجتزت الشارع بوثبات صغيرة حذرة .
في الشّارع ، رأيت حلقة نساء . تسلّلت تحت سيقانهنّ . هربن فزعات . لم أُخرج لهنّ شيئاً . أردت أن أرفع رأسي وأشمّ كلمتي تحتهنّ . لكنهنّ فزعن . تسلّلت عبر الجدران والنّفايات . لم تعد الرّائحة تزعجني . هي رائحتي التي أكسبني إياها القزم . ذَهَبَ وترك لي الرّائحة . قصدتُ المدينة العتيقة . تفاديت عمّال البلديّة والعجلات . توغّلت في أزقّة سيدي عبد اللّه قش . الأقدام كثيرة هنا . تتجوّل أمام أبواب النّساء . تسلّلتُ إلى باب تقف أمامه واحدة ترتدي كلمتي . اختبأت وراء الخزانة ، صاح الجرذ في بطني :
- ها ها . . . . أنت لم تأكلني ، أنا الذي أكَلْتُكَ !
- مَنْ منّا الآخر ؟
- ها هَا . . كلانا يبحث عن الدّانتيلاّ !
دخلت المرأةُ مرتديةً كلمتي . التحق بها زبونها . خلعتْ كلمتي وألقت بها على الكرسي فتدلّت حتى الأرض . تشمّمتُ طرفها . تهيّأ الرّجل وتمدّد فوقها ، فتهيّأتُ للهجوم على الدّانتيلا .
- يا أحمق ، هذا القميص من النايلون !
- ماذا أفعل ؟
- اُدخل إلى الخزانة . أرأيت ؟ أنا لست أنت !
ألهث . تفوح الرّائحة . دانتيلا بعيدة تطغى رائحتها على ياسمين الحدائق . أهجم . أختبئ وأترك أنفي .
- لم نعد اثنين ! قلت له .
- أكلتَ نفسك ! قال لي .
- أكلتُك أنتَ ، يا قنبع !

نهايات مُحتَملة

جاءني جابر برفقة رجل قصير القامة ممتلئ الجسم ، وقال :
- جئتك اليوم بشخص آخر من الماضي !
سألته متمعّناً في وجه الرّجل السّمين :
- منْ ؟

وضع جابر يده على كتف الرّجل، وأجاب :
- هذا شاويش الجبس عاد من ألمانيا !
- شاويش الجبس ؟
- نعم !
وعندما لاحظ استمرار دهشتي انطلق قائلاً :
- شاويش الجبس، بوسطل الذي حدّثتك عنه، وكان يدفن النّمل والجعلان. بوسطل المهووس بسدّ الثّغرات وحراسة الثّقوب... ها هو ذا ! لقد كبر وهاجر، وجاب الشّرق والغرب. رعى الخنازير وكنس الشّوارع. وعاد، على الرّغم من مصائبه، أكثر سمنة وقصراً. لكنّه صار أكثر ثرثرة مع عبارة واحدة يستبدل بها الثرثرة إذا رغب في التزام الصمت : كلّ شيء نسبي.
- كل شيء نسبي فعلاً ! قال بوسطل.
- كيف عرفتَ ذلك ؟ سألتُه ممازحاً.
- كلّ شيء نسبي، أجاب، حتى المعرفة !
- ماذا كنتَ تعمل هناك، في البلدان التي زرتها ؟
أسرع جابر إلى الإجابة عنه :
- عمل في كل شيء : البناء، الطّبخ، النّجارة، الطّباعة، بيع الجرائد، قطف العنب...
- والآن ؟
- عاد، لكنّه وقَعَ في فخّ مطلَّقتَه. تلك حكاية أخرى. المهمّ أنه مفلس الآن، وعاطل عن العمل، وهو يبحث عن شغل. قلت آتيك به ليعملَ عندك.
- عندي ؟ أين ؟
- يحرس أرضك الجديدة المنزلقة، وربما يساهم في بناء الفيللا...
- لكنّ أعمال البنّائين متوقّفة الآن، وأنا أحتاج إلى الاختلاء بنفسي هناك، للكتابة بعيداً عن الضّجيج والإزعاج.
- صدّقْ، إنه لن يزعجك حتّى يكتمل البناء؛ وسوف يضمن لك حراسة المبنى. ومن المعروف أنه لا يتدخّل إلا لسدّ بعض الثغرات في هذا الجدار أو ذاك السّياج، مع إصلاح بعض العيوب.
ظلّ بوسطل طفوليّ الملامح برغم مصائبه وإمعانه في السنّ. وأدركت بمرور الأيّام أنه ظلّ يتميّز بالتّفاني والتفرّغ الجادّ إلى كلّ ما يشغله، غير أنه لا يكفّ عن التّشكيك في كلّ مبادرة يأتيها حتى ليبدو عاجزاً عن إنجاز أيّ شيء. رضي بالحدّ الأدنى، كما قال لي، لأنّ كلّ شيء نسبي، حتّى مُدَّخراته السّابقة التي تبخّرتْ. ومع ذلك عهدتُ إليه بحراسة قطعة الأرض السّاحليّة، والإشراف المتقطّع على أعمال البنّائين، أيّام حضورهم، على أن يتصرّف معهم في بناء كوخ خشبي يأوي إليه إذا شاء.
بعد ذلك قرّرت أن أزوره، لكنني مررت لرؤية بوسطل قبله كي أتفقّد أرضي، وأعاين ما توصّل إليه حتّى الآن مع البنّائين الذين لا يطلّون على المبنى الناقص إلاّ مرّة كلّ شهر أو شهرين، عندما أدعوهم إلى ذلك. وجدت بوسطل قد حفر حفرة كبيرة، لم تكن موجودة، ولا أذكر أنني أمرت البنّائين بحفرها. سألته عنها فأجابني :
- بيت بلا بئر، وأنت على طبقة مياه ؟

- وهل تنقصنا المياه المالحة ؟
- بالعكس، البئر تضمن لك مراقبة الباطن وقياس المنسوب .
وأزعج شاويش الجبس بقيّة البنّائين بطلباته وملاحظاته، حتّى صار بوّاباً حقيقيّاً قبل اكتمال الباب ! أحياناً، لا يعجبه العجب العجاب فيتخاصم مع الجميع، ويأمرهم بأن يكفّوا عن العمل المغشوش . وعندما أحضرُ يقف منتصباً أمامي، متخلّياً عن سلطته التي استعارها منّي، مردّداً أمام العمّال : «نعم سيدي ! حاضر سيدي !» .
تركتُه وقصدتُ عنوان جابر، في حلق الوادي . وجدت الفيللا التي يسكنها شبه مهجورة . دفعت باب الحديقة، ومشيت على أعشاب يابسة، وأشواك صيفية . وكانت هناك عظايات وحشرات كثيرة تهرب من خطواتي . ولم أكد أطرق الباب وأمسك بأكرته من الخارج حتى وجدت جابر يمسك بها من الدّاخل، ويفتح كأنّه كان ينتظرني . حسبت أنه فقد بصره، بسبب تلك النظّارة السوداء التي يضعها، فيما بدت ضمادة بيضاء على عينه اليمنى . سألته عمّا أصابه، فتهرّب قائلاً :
- حسبتُكَ دليلة !
- لا شكّ أنك تنتظر امرأة، لكنك لم تخبرني، ماذا أصاب عينك؟
لم يجب فعدت إلى موضوع المرأة :
- ربّما زرتُك في وقت غير مناسب وأنت تنتظر امرأة ؟
أجاب بهدوء، وهو لا يزال واقفاً :
- هي صاحبة البيت . لكنني في الحقيقة أنتظر مجيء عمر .
وما هي إلا لحظات حتّى وضع يده على أكرة الباب ودخل عمر، فقال جابر :
- المشكلة أن دليلة ستأتي أيضاً .
تدخّل عمر غاضباً :
- قلت لك ينبغي أن تتركها، وتعود إلى كاف الحجر .
فابتسم جابر بمرارة، وقال هامساً :
- هيهات أن أعود إلى ما فات . . .
عاد عمر إلى غضبه :
- هناك، على الأقلّ، تجد من يستر عيوبك بعيداً عنها !
ثم التفت نحوي، وأكمل :
- هو لا يصرّ على البقاء في هذا البيت بسبب دليلة صاحبة البيت، بل من أجل جانيت .
- جانيت ؟
- نعم ؛ لست أدري من حشا دماغه بوجود عشيقة فرنسية تسكن في السّقف، واسمها جانيت، أيضاً ! لقد فقد عقله . . .
أشار جابر إلى السقف، وقال بنبرته الساخرة التي لم تعد تفارقه :
- الروح هناك، فوق، واللّحم عند دليلة .
صاح عمر :
- عندك لحم في القرية، وعليك أن تختار من هناك .

ردّ جابر :
- اخترتُ فأوصلتني القرية إلى هنا .
خرج عمر ساخطاً وصفق الباب وراءه . وعندما سعيت إلى تهدئة جابر وجدته هادئاً لا يحتاج إلى جهدي . قلت له :
- اسمعْ ! ابقَ هنا . لا تذهب إلى القرية . وتزوّج دليلة .
- وجانيت ؟
أجبته ممازحاً :
- دع المعركة تتواصل بينهما .
- ومَنْ قال لك إنّ دليلة ستقبل أن تكون طرفاً في المعركة ، وتسكن هنا؟ هذا إذا كانت لي أية رغبة في الزواج منها كما تقترح !
- لم يعد هناك خيار ، يا جابر ؛ هل تستطيع العودة إلى القرية؟
- لا .
- هل تستطيع التخلّي عن جانيت ؟
- لا .
- ودليلة ؟
- لا .
- وأنا ؟
همهم جابر قليلاً ، ثم أجاب :
- لا .
- وعمر ؟
- لكنّه يريد أن يجبرني على العودة .
- سوف أقنعه .
وبالفعل ، ذهبتُ إلى المدجنة ، وحاولت إقناع عمر ؛ لكنّه أصرّ على موقفه :
- ستجده ميتاً ، ذات يوم
- وإذا عاد إلى القرية ، ألن يموت في الطريق ؟
- موته هناك أفضل من الفضيحة هنا !
- عن أيّة فضيحة تتكلم ؟
- ألا تعلم كيف فقد إحدى عينيه ؟
- كلا .
- يتلصّص على نساء الخَلْق . لا يوفّر ثقباً مفتوحاً أو فرجة . . .
- كثيرون غيره يفعلون ذلك ، لكن كيف فقد عينه ؟
- وقع في فخّ امرأة يتلصّص عليها . أخبرتْها جارة لها ، تعاني من الأرق بسبب تقدّم حَمْلِها ، أنها تشاهده يتلصّص

عليها كلّ ليلة في ساعة محدّدة. فأخبرت الزوجة زوجها، فما كان منه إلاّ أن تربّص به وهيّأ إبرة طويلة لحياكة الصّوف من سلّة زوجته، وعندما لمحه يتلصّص بشكل موارب، غرز الإبرة في عينه!
- لا أصدّق! هذه جريمة! ألم تنجرّ عنها مضاعفات قانونية؟
- ومن الذي كان سيلجأ إلى القانون؟ أين كنتَ كلّ هذه الشهور؟
- لن يعود إلى مثلها الآن!
- ومن قال لك ذلك؟ هذا الرّجل تحرّكه عين في الذاكرة.
- لكنه صار يرتاب من الثّقوب. ألم تلاحظ أنه يحشو ثقوب أبوابه بالورق؟ لعلّه كفّ عن مراقبة الآخرين؟
- بل لأنه لم يعد يراقب، صار يخاف أن يراقبه الآخرون. وقد يكون لذلك علاقة بتوهّم آخر.
- آخر؟
- مراقبة جانيت له، مثلا؛ إنه يعيش في جحيم من الوساوس!
- معنى ذلك أنه ما زال يدمن اللّعبة نفسها.
- نعم؛ وهل هي لعبة؟ قلت لك إنّ له عيناً في الذاكرة. ولا شك أنها تعمل الآن حتى شفاء عينه السليمة من صدمة أختها المفقوءة!
- إذاً، له عين في الذاكرة.
- ولذلك، أيضاً، أريد مساعدته على العودة إلى كاف الحجر.
- إذا فعلت ذلك قتلْتَه!
- لماذا؟
- لا تستهنْ بشراسة الذاكرة يا عمر. سوف يعود ولو زحفاً على بطنه!
- أعرف ذلك. أخذته أكثر من مرّة إلى شقّتي، لكنه عاد إلى بيته.
- إذاً؛ دَعْه!
- لا أنوي أخْذَه إلى القرية.
- إذاً؟
- أريد أخذه إلى المستشفى.
- المستشفى؟
- نعم. لقد جنّ!
- لا أجده مجنوناً. يعاني من بعض الأعراض العُصابية فقط، وهي أعراض موجودة عند الجميع، وإنْ بدرجات متفاوتة، ولا تبلغ حدّ الذُهان.
- لكنّ الجميع، الذين تتحدّث عنهم، لا يشعرون أنهم جرذان أو فئران!
- هو يشعر بأنه كذلك؟
- نعم! قال لي إنه مجرّد فأر صغير، «فأر بوتميرة»، خرج من بطن الجرذ الكبير، والجرذ الكبير كان في بطن القزم، والقزم كان يقف على كتفيه. هاتِ حلّ هذا اللغز؛ اسكنْ معه وسوف ترى وتسمع!
قلت لعمر وأنا أودّعه مُطَمْئِناً:

- اسمعْ يا عمر ، اُترُكْه لي ، ولا تخفْ !

زيارة بوسطل

قال لي بوسطل : أنت الوحيد الذي لم يبادر إلى رؤية مريم حتى الآن . كلّهم رأوها ، وحاولوا المستحيل من أجل جابر . فلماذا لا تحاول بدورك؟
- ولِمَ أفعل ذلك ؟
- قدَ تتحوّل الأحداث ، بفضل تدخّلك ، إلى صالح جابر .
- لست مقتنعاً بجدوى هذه المبادرة حتى الآن .
- لكنّك تعرفها منذ الطّفولة . ثم لا تنسَ أنها أقامت فترة في بيت أهلك ، وشاركتْ في تربيتك أيضاً !
- نعم . لا أنكر ذلك .
- إذاً . . .
- أنا متزوّج كما تعلم ؛ وأخشى ما أخشاه أن ينهار البيت . . .
- تخشى زوجتك؟ وهل لك ميول تخفيها تجاه مريم ؟
- اسمعْ يا بوسطل ! لا علاقة لي بعالم المغنّين والمغنيات ، ولا تعجبني موجة الأغاني الجديدة .
- كلامك لم يقنعني ؛ ما دخل الغناء هنا ؟ هل تعترف بجابر فاشلاً ، ولا تعترف بمريم ناجحة؟
- لست أدري كيف ستتطور الأحداث إذا قابلتُها ، قد ترفض ذلك ، وأنا لي كبريائي كما تعرف .
- لماذا ترفض مقابلتك؟
- لأنني قد أذكّرها بماضيها !
- ماضيها ؟
- عندما كانت عندنا ، كانت أقلّ من مربّية ، وأفضل من خادمة .
- لقد تغيّرت ظروفها الآن .
- ولأنّها تغيّرت تحديداً ؛ قد تتقبّلني بازدراء وتعال ، كما فعلتْ مع جابر بالضّبط ، لأننا نذكّرها بذلك الماضي ! ثم عمَّ سأحدّثها ؟ عن ماضيها ، أم عن نجاحها ، أَم عن احتمال فشلها؟
- حدّثها عن جابر .
- عن جابر ، مباشرة ؟
- لِمَ لا ؟
- أستطيع توقّع ردّها : انصحْ جابر بأن ينسى كلّ شيء .
- لماذا تعتقد ذلك ؟
- هل تتذكّر مريم قريتَها ، كاف الحجر ، حتى تتذكّر جابر ، أو تتذكّرني؟
- وما أدراك ؟
- النّجاح ، السلطة ، الشهرة . . . كلّها أسباب تخلق من الشخص شخصاً آخر ، يا بوسطل !

- هكذا ؟
- الأهمّ من كلّ ذلك أنني لا أرى مريم، الآن، إلاّ من زاوية كونها متبلورة عشقاً في ذهن جابر. وهذه الصّورة الخلاّبة من الخارج، تستطيع من الداخل - بل استطاعت - إتلاف دماغه.
- عليك أن . . .
- إذا قابلتُها الآن، وهي لا تزال تعيش بعض تألّقها ونجاحها، سأجدها كومة عواطف ناجحة، أي باردة تجاه من يزعجها بحبّه - الشخصي - القديم!
- لا شكّ أن كلّ مَنْ قد تحكي له قصة جابر أولاً، ثم يرى مريم لاحقاً، سوف يقول: إذًا، هذه هي مريم التي سلبت دماغه؟ إنها امرأة عادية من لحم ودم.
- لكنها نجمة ! لا تنسَ أنها نجمة. والكائن الأرضي لا يستطيع التعلّق بنجمة إلا إذا ظلّ يعبدها من تحت، مكتفياً بنورها الموزّع على الجميع.
- ما الحلّ إذًا ؟ هل ستترك جابر يفقد عقله، وربما يموت؟
- اسمعْ ! إذا نجحتْ مريم وصارت مطربة كبيرة كما تطمح؛ انتهى جابر. أمّا إذا فشلتْ فإنّ هناك أملاً في عودتها - ككلّ من يُفلس ! - إلى أوراقها القديمة؛ وفي أوراقها القديمة يوجد شخص مستعدّ لاحتضان فشلها؛ إنه جابر !
- يا لها من معادلة !
- لذلك، لا يمكنني التدخّل إيجابياً إلا بعد مراقبة مسيرة مريم الفنّية !
- أنت تنتظر فشلها إذاً ؟
- كلّ مطربة تظهر على الشّاشة، أو تسافر إلى الشّرق مؤقّتاً، لا تحقّق نجاحاً بالضّرورة، قد تعود فاشلة مقهورة !
- أهذا هو الحلّ ؟
- هل ترى غيره، يا بوسطل؟
- لست أدري. لا يهمّني نجاحها أو فشلها، كلّ ما يهمّني الآن هو جابر.
- إذاً، يهمّك فشلها !
- يا لها من معادلة ! لكن، في النّهاية، كلّ شيء نسبي !
- كلّ شيء نسبي، اتّفقنا، بما في ذلك النّجاح !

يا جابر ! أنت في الدّاخل، أعرفُ ذلك !

غابت أصوات عائلتي الصّغيرة، لتدوّي في أفراح ابنة أختي، وبين تقاطع الكتابة والصمت، قلتُ: أذهب لزيارة جابر، وربّما للإقامة معه بضعة أيام إذا تسنّى لي ذلك. عندما وصلت، أمسكت بأكرة الباب من الخارج من دون أن أطرق أو أفتح، إدراكاً منّي أن جابر يمسك بالأكرة من الدّاخل. فتح الباب بسرعة وكان شبه عارٍ؛ حثّ الخطى نحو غرفته معتذراً:
- أرجوك، أنا الآن معها، وهي عارية؛ انتظرْني قليلاً في الصالون.

جلستُ متأملاً. طال بي الانتظار ولم يخرج جابر. شعرت بالحرج وفكّرت في المغادرة. لكنه قد يؤوّل ذلك ويغضب. كيف أعتذر له؟ حاولت التنصّت. كان الصّمت يغمر الغرفة، ولا يمزّق هدوءه سوى الهمس «دانتيلا»، ثم يعود الصمت «دانتيلا بيضاء»، همس، «دانتيلا سوداء»، يطبق الصمت من جديد فتتوالى ألوان الدانتيلا: حمراء، وردية، بنفسجيّة...

شككْتُ في وجود دليلة معه، لكنَّ ثقب الباب مسدود بالورق. ولا يمكن الاستجابة لإغراء التلصّص على ما يحدث داخل الغرفة من خلال الثّقب. صار جابر يخشى أن يُراقب فيحتاط للأمر. من يدري كيف يرى الأمور هذه الأيام؟ ران الصمت قرابة الساعة. عيل صبري وقرّرت طرق الباب والاعتذار. فتح جابر باب غرفته؛ دهشتُ:

- لكنني لا أرى امرأة معك!

أشار إلى الفراش، بملاءاته ووسائده المبعثرة؛ وقال:

- جانيت كانت هنا...

- كانت نائمة معك؟

- كنتُ أدغدغها فتضحك.

- وهل تجيد الضحك؟

- أيّ شيء تدغدغ جلده يضحك.

- وهل لجانيت جلد؟

- جانيت لها قصة. وعندما تدغدغ جلد القصة تضحك الكلمات.

لاحظت طيلة الأيام الثلاثة التي أمضيتها معه، أنّ كلّ جديد يدخل عالمه، يتأمّله ثم ينشئه من جديد بطريقته الخاصة، فيخضعه إلى معالم ناتئة في عالمه الشّخصي. هكذا يتعرّف على الناس والأمكنة والمدن. حدّثني عن رائحة كلّ مكان يعرفه، ونبرة كلّ إنسان، وطريقة حضوره عبر الرّائحة والصّوت، والظلّ أيضاً.

لا يشعر دائماً أنه تحوّل. تنتابه الحالة بتقطّع. فيتناوبه الصّفاء والسّلوك الجديد باعتباره «كذلك»، أي فأراً. يغتسل ويحلق فيبقى إحساسه بوجود ما غسله وما حلقه. كأنما يغسل رائحة الفأر ويحلق وَبَرَه. يغسل كيانه الداخلي ويحكّه بحركات عصبيّة لا تكلّ. ومع ذلك لا يمكن لمن يراه أن يدرك أنه يعيش مثل تلك الحال، إلا إذا عايشه عن قرب. بل يمكن القول إنه يعيش فأراً من الداخل، وإنساناً منعزلاً في الخارج. وأحياناً يبدو مسيطراً على تدفّق دواخله مع صفاء واضح، وقدرة على الحوار، ونسيان بعض الأحداث والشخصيات مقابل تذكّر غيرها.

انتهزت فرصةً بدا فيها رائقاً، وحاولتُ إقناعه:

- أنت يا جابر تشغل دماغك بصورة متكرّرة للمرأة، ولا تضيف جديداً إلى سجلّ العاشقين عبر العصور. قصّة حبّك معتادة؛ لقد هربتْ منك إلى غيرك، فهربتَ من ذاتك إلى غيرها، باحثاً عنها. إنها قصة حبّ متبلورة في كيانك مع أنها عادية، بل خاوية، من الخارج. عليك أن تخرج من جبل البلور الذي يتكلّس ببطء في أحشائك. وأنا هنا لمساعدتك.

- وهل ستساعدني على طريقة القزم؟ القزم حذّرني، وأكّد لي أن اللقاء الدائم محرّم، لأنّه حلم. لا تطلبها

ثانية، قال لي، لأنّ ماضيها سوف يهشم مرآتك، لأنه الغرفة السرّية ذات المفتاح الأزرق في الحكايات، الغرفة التي تناديك موضوعاً لرؤيتها، فتنقضّ عليك العيون وتراقبك، لأنك لم تعدْ عيناً ترى فقط، بل صرت العين التي ترى أنها ترى، فتتمرأى فيك، وتتحوّل بدورها إلى عين ترى أنها ترى نفسها فيك... تتقدّم بقدميك، وتبكي بدمعتك، وتعيش من فضائحك متسترّة على فضائحها، لأنها قدّمَتْكَ موضوعاً على مذبح نفاقها ومُراءاتها: العين تاريخ للسّحق. وكلّ راء يسقط ضحية عيون أخرى ترانا كما نحن، أو كما لسنا...

- أهذا كلامك أم كلام القزم؟

- كلّ ذلك يدفع بي إلى ما أكره، إلى جاذبيّة المياه المالحة، حيث لاشكّ أنّ أنهاراً كثيرة قد أوصلتْ شيئاً من جدّتي إلى الأوقيانوس الذي كرّر القزم اسمه حتّى كرهتُه.

- كيف صدّقته؟

- قلت له سأقتلك في داخلي. سأبدأ بنفسي لتموت تحت إمرتي، لكنّه دوّى بضحكته الأخيرة، إذاً أتركك! إذاً أساعدك على اللقاء؛ اللقاء الأخير، اللقاء الدائم، بعد فشلكما في مضاهاتي، إذاً أقرر التلاشي من طريقكما إلى مستقبل آخر، لأنني لا أعايش إلا العظماء، وأنت لست سوى فأر، لكنني أدلّك على خير ما تفعل...

- وهل دلّك؟

- سيفعل قريباً.

- لكنك قلت إنك ستقتله...

- إذا لم يَفِ بوعده...

- أيّ وعد؟

- اللقاء الأخير؛ اللقاء الدّائم بمريم.

حدثت جابر عن نفسه بضمير الغائب آملاً أن يستبطن القصّة المعروفة:

- كان لي صديق اسمه جابر...

- ها...

- سأروي له نكتة.

- هاها...

- صار جابر فأراً بسبب توهّمه أنه خرج من بطن جرذ مقتول، والجرذ المقتول هرب قبل موته من بطن قزم، والقزم خرج من بطن صديقي جابر...

- ها ها ها..

- ولأنه تحوّل إلى فأر يحبّ الدانتيلا، فقد بات يخشى القطط، لكن الطّبيب أقنعه بأنه إنسان؛ والقطط لا تلاحق الإنسان وتفترسه.

- ها...

- كلام الطّبيب صحيح يا جابر. أنت تسكن في أشهر ضاحية تونسية معروفة بكثرة القطط. والقطط لم تلاحقك وتفترسك حتى الآن.

- ها ها... أعرف تلك النكتة.

- نكتة ؟
- ألم يقل المريض للطّبيب : أنا أعرف أنّ القطط لا تلاحق الإنسان، لكن القطط لا تعرف ذلك !
- ها أنذا أساعدك يا جابر، وأكتب عن «شمس القراميد».
- كلّ ذلك لا يكفي . . .
- ماذا تريد أيضاً؟
- أريد المشاركة في عرض كبير ، بالصّوت والصّورة.
- عرض ؟
- نعم . عرض مسرحي أو سينمائي عن الفداوي.

صُعقتُ لهذا الطّلب المفاجئ لي، والمهين له. وجاءت دليلة فعارضت الفكرة بقوّة. وعندما أدركتْ أنني قد أكون الوسيط في تنفيذها، كما يأمل جابر، هاجمتْني بعنف، بل وسألتني، أيضاً، عن إقامتي المؤقّتة في البيت، وكيف أسكن مجاناً في بيت أجَّرتْه لشخص واحد.

خرجتُ لاقتناء بعض ما نحتاجه للأكل. وعندما عدت وجدت أغراضي وما أتيت به من ثياب، في كيس نايلون أسود، علّقه جابر على أكرة الباب الخارجيّة. طرقتُ وناديتُ: «جابر! أنت في الداخل، أعرف ذلك!»، لكنه لم يرد. حاولت مرّات عدة مكابراً أمام عملية الطّرد السافرة: «سأقول لك كلمة واحدة يا جابر، افتحْ!» فلم يردّ . . .

هل أساعده في عرض فرجوي فعلاً ؟ من يدري ؟ قد يكون في ذلك شفاؤه .

هذا هو الحلّ لأحقّق حلماً أريده

كما الموجة تليها موجة، بدأتْ صورة مريم تختفي بالتّدريج من واجهة الإعلام. انتبهتُ للأمر وحاولتُ تسقّط أخبارها عبر الاقتراب من أوساط الصّحافة الفنّية. فعلمت أنها تعاني من إحباطات وأزمات نفسية. في البداية اعتبرتُ وضعها الجديد عاملاً مساعداً لإنقاذ جابر. لكن، عندما زرته مرّة أخرى، أكّد لي أنه رأى مريم تموت في الخربة، «لم أرها فقط، بعينيَّ، بل كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة بين يديّ. . .»، وعاد ليلحّ على فكرة العرض الفرجوي. فأخبرته بما بذلتُ من جهد في هذا المجال:
- اسمعْ يا جابر ، لنكن صريحين؛ العرض الوحيد الممكن، توصّلت إليه من خلال مخرج مسرحيّ يهتم بالفلكلور والعادات والتقاليد، انطلاقاً من رؤية شخصية، وإنتاج فرجوي ضخم تدعمه الدولة .
- ممتاز ! هذا ممتاز !
- لكنّه يوافق على مشاركتك بشرط مهين . . .
- وما هو هذا الشرط ؟
- أن توافق على دورك كما عشته . . .
- طبعاً . . .
- لكنْ . . .

– أنا موافق ! أنا موافق !
– لكن الشرط . . . لم تفهم الشرط . . .
– هناك شرط آخر ؟ ما هو ؟
– يريد العرض . . .
– نعم . . .
– تحت عنوان : حكاية الفداوي الذي صار فأراً.
– تمام !
– قال إنّه سيوفّر كل الشخصيات التي تتحدّث عنها، من مريم إلى جانيت، ومن العينوس إلى البهبهاني، لأنه مخرج مغرم بالمفارقات. وسوف يكثر من الرّقص والبخور والبنادير طبعاً. لكنّني رفضتُ المسخرة !
– هذا واقع، وليس مسخرة .
– لا تقل لي إنك ستوافق ؟
– بلى ، أوافق ، لمَ لا أوافق؟ هذا هو الحلّ لأحقّق حلماً أريده، ساعدني، أرجوك !

عَيْن كاسِرَة . . . حَارِسَة

بعد تحضيرات وتمارين دامت بضعة أشهر، خرج علينا المخرج بعرض ساحر لا تنقصه الأضواء والألوان والأغاني والرّقصات، وزادت في قوّة الإبهار تلك السّحب العارمة من دخاَن البخور وصخب البنادير والطبول، مع مواقف مأساويّة ذات مسافة تغريبيّة مُنقذة من الدّراما، وشخصيات ساخرة، أو فالتة نحو رحابة فنون العالم.
اختلف النقّاد حول قيمة العرض ومراميه ونواياه، لكن الصّحافة بادرت بكتابات متحمسة عن «حكاية الفداوي الذي صار فأراً». وتعدّدت ردود فعل القرّاء والمتفرّجين، فانتقد بعضهم تلك الاحتفالية المعلنة والصّريحة بأفول رمز من رموز تراثنا، ورأى بعضهم أنه كان من الأفضل توظيف حكايات الفداوي، وليس استغلال أكذوبة رمزيّة عن حياته. وفي خضمّ هذه الأصداء، بادرت قناة تلفزيّة ، غنيّة الأهداف والإمكانات، إلى شراء حقوق العرض من المخرج. وظلّت تعلن عن بثّه القريب مدّة أسبوع.
كيف خرج جابر من هذه التجربة ؟
لقد بَدَا عليه بعض الاتّزان، ثم ازداد بريق عينيه مع نظرة غائمة ، وارتباك في كلّ شيء: حركاته ، كلماته ، ذكرياته . . .
ويبدو أنه لم يتضرّر كثيراً من العرض المسرحي، لأنه شغل كيانه، وربّما صفّاه وطهّره ، من الدّاخل. أمّا من الخارج، فقد استُقبل جابر، وبالتّالي دوره، باعتباره دوراً تمثيليّاً وكفى، أي أن الجمهور تسلّى بأقنعة الحكواتي، ولم يفترس جابر .
ثم حصلت الصدمة الكبرى . . .
حدث ذلك عندما انتهزت مذيعة تلفزيونية معروفة، ذلك النّجاح ، واستدعت الفداوي جابر الطرودي إلى برنامجها المثير «كلّ شيء بصراحة»، وتَعْمدُ فيه إلى إحراج الشخصيات اللامعة والنجوم الخابية. حاولتُ إقناع

جابر بالعدول عن هذه الفكرة، وعدم تلبية هذه الدعوة. وبذلت كل ما أوتيت من قدرة على الإقناع :
- اسمعْ يا جابر : في المسرح، ظهرتَ ممثلاً ، أي مجرّد مؤدٍّ لدور ليس أنت. أما التلفزة فهي لا تستقبلك الآن كممثل، بل كشخص اسمه جابر الطرودي.
- وما العيب في ذلك ؟
- الشاشة عين كبيرة، تمتصّ ملايين العيون، وتقذف بك إليها عظاماً بلا لحم أو ريش. هناك أمران لا يمكن السّماح بهما للتلفزة : أن تعرّي لها قلبك، أو بيتك. إنها عين كاسرة. عين كبيرة لا تعرف الخجل. تقتحم بيتك لتوزّعه على آلاف البيوت وتعرّي قلبك لتقذف به في ملايين العيون. والأفظع أن كلّ ذلك يجري من دون استئذان أو طرق أبواب، أو ترصّد عبر الثّغرات.
- ألم تقل لي إنه عصر الصّورة ؟
- لكنها ، في حالتك، صورة قاتلة !
- لماذا ؟
- ربما لأنّك ذاهب إلى سرقة ما، إلى سرقة النّور لا النّار، غير أن طائراً كاسراً ، له ملايين العيون، سوف يمزّق عينك وينهش قلبك.
- هربتُ من السّماع إلى الصّورة.
- بالعكس، يا جابر، أنت الآن في وضع خاص، عليك أن تسوّر روحك بمزيد من الأقنعة حتى تتوصّل إلى تجليس ذاتك في كيانك. إنها تغادرك. ألم تنتبه إلى ذلك؟
- لماذا ؟
- تريد أن أحكي لك ما حصل لرجل تعلّق ببطولة الوهم مثلك ؟
- كيف كان ذلك؟ ومتى ؟
- كان ذلك قبل أعوام عديدة، قبل مجيئك إلى العاصمة ، عندما بدأتْ حملة تنظيم النّسل : وكان هناك مواطن أول، ابتسم لنا قبل بضعة عقود من شاشة التلفزة، كما قد تفعل أنت قريباً من دون حسبان العواقب.
- وبعد ذلك ؟
- كانت الفرجة آنذاك تتعلّق بمبادرة أوّل رجل تطوّع لعمليّة منع الإنجاب عند الرجال، وليس عند النساء وحدهنّ، كما جرت العادة. فكان مصيره، بعد خروجه من مكيدة الشاشة الدعائيّة، أنْ لاحَقَتْه العيون والأصابع والألسنة «ها هو، ها هو ذا، المخصي، اللّي ما يحشمش على روحه . . . ويضحك زادة ! ويخرج للشارع زادة ! . . . »، فما كان منه إلا أن قتل نفسه. لم تقتله عمليّة تحديد النّسل في حدّ ذاتها، بل قتلته الصّورة التي عرّت دواخله ومخاصيه.
- هذه حكاية . . .
- تماماً مثل حكايتك ! إذا كنتَ قد أمضيت نصف عمرك أو أكثر، مدفوعاً بعين بشريّة متربّصة بالآخرين، فعليك اليوم ألا تسمح لعين أخرى، كاسرة حارسة ، بأن تعريك وتفترسك. والأخطر أن المستهدف حالياً في وضعك، ليس صورتك، أو جسدك، بل قلبك وبطنك وشغافك المتمزّقة نحو تمزّق أسوأ. انتبهْ يا جابر ! لا تتعرَّ لها، لا تفتح لها قلبك، إنها الصّورة التي تحطّم كلّ الصّور. هل تتذكّر امرأة المستنقعات في حكاية «شمس القراميد»؟

- نعم . . .
- التلفزة أقسى وأمرّ !
- وأين وجه المقارنة ؟
- سترسم لك صورة أخرى عن ذاتك، وتتبنّاها أنتَ، بدورك، لتكفّ عن كونك أنت. وعندما تبحث عن ذاتك ولا تجدها، لأنّها توزّعت على الآخرين، قد يؤدي بك ذلك إلى . . . ما لست أدري . . . لا تنسَ أنك كنت تسرق وجوه الآخرين فكدت تفقد وجهك، بل بدأت تفقده . . . الآن سيلتهمك الآخرون، وتفقد وجهك القديم والجديد، أنبّهك يا جابر !
- أفكارك حربيّة .
- حماستي تأتي من وضعك الخاص يا جابر .
- أنا لا أرى الأمور هكذا .
- يبدو أنني لم أقنعك حتى الآن، ولن أتوصّل إلى ذلك . . . على أيّة حال، لي كلمة أخيرة . . .
- ما هي ؟ قُلْها واسترحْ !
- الجثة التي تدنو من قبرها هي الوحيدة التي تستطيع أن تتعرّى، ولا حرج عليها . . . ولا عليك !
- وهل أنا جثة ؟
- لا أدّعي أنني قلت ذلك !
- إذاً، ماذا تقصد ؟
- أردت القول إنّ أفضل مَنْ يتقدّم للصورة حتى تلتهمه؛ شخص هرم، يفتح أسراره، وهو على شفا عالم الصّمت الأخير، يفتح أسراره لتمتصّها الصور، ثم تثوي في الأرشيف !
- إذاً ، ها أنذا أنتظر موعد التّصوير . . .

ملايين من الحشرات اللّزجة

لم يقتنع جابر بكلامي. وحكى كلّ شيء بعينين برّاقتين تطلاّن من الشاشة. تعرّفت الجمهورية كلّها، أو نصفها، في أسوأ الأحوال، على «جابر الفار»، وانتشرت شهرته لتغطّي جمهوريّة الأعماق ومناطق الظلّ التي وصلتها الكهرباء حديثاً.
كُتبتْ عنه القصائد، وأطلّت القصص، وتهيّأت الروايات.
أمّا المذيعة فقد ابتسمت لنا جميعاً، إثر انتهاء ذلك اللقاء الوحشي. وعندما فوجئت بعدم انقطاع البثّ وظهور شارة البرنامج، حاولتْ وضع قلمها في جيبها، فاكتشفت أن قميصها بلا جَيب. وعادت إلى أوراقها توزّعها، ثم تجمعها مرتبكة، حتى غادرتنا صورتها التي طبعتْ صورة جابر الطرودي فأراً في جمهوريّتنا.
المفاجأة الوحيدة التي توجّست من حدوثها، خلال تلك المقابلة، هي أن يتحرّك القزم، داخل جابر، بوسائله الخاصة، ويقنعه بفتنة الموت المباشر على الشاشة. لذلك مكثت أتفرّج مضطرباً . في البداية لم يفاجئني جابر بجديد، في ما رواه خلال اللّقاء التلفزي، مع أنه عرّى دواخله بأسلوب قاتل، لكنّ مقطعاً من حديثه شدّ انتباهي

وزعزع شيئاً ما في داخلي. كان ذلك عندما سألتْه المذيعة عن سبب انتقاله إلى المدينة وخيبته فيها، فأجاب: هناك شخص ناداني. وبعد أن تحرّكت المياه بيننا، وضع لي فخاخاً كثيرة، كعادته. فتجاوزتُ العقبات المتتالية: كلاب المقبرة، مرايا مريم، بركة السنهوري، العشيقة الفرنسية، القزم سهلون... ولمّا لم تنفع كل الفخاخ، نصب لي الفخّ الأوسع؛ الفخّ الأشرس الذي تهيّبته طوال حياتي: أقصد المياه المالحة...
ابتسمت المذيعة وهي تقاطعه:
- ولكن، من هو هذا الشخص يا ترى؟ أم أنّه سرّ؟
- كنت فيه هادئاً، وكان فيَّ هارباً، لكنه صار يختبئ في جيبي، فأختبئ في جيبه.
- يا له من جواب طريف، قالت المذيعة، لا شك أنّ كلّ ما ذكرته قصص وحكايات لا تنضب... لكن، ألا تحبّ البحر؟
رفع جابر إصبعه نحو المتفرّجين وكأنه يُشهدهم على ما سيقول:
- المياه المالحة هي مقبرتي البحريّة بعد أن أفلتُّ من ميتاتي الأخرى... حتّى في الصّحراء لم يهدّدني العطش، بل أنقذني منه الرّجل الأمريكي القادم في سيارة «لاندروفر» من مالي والنّيجر، مع أنه ترك القزم يسخر مني، ويقول لي: «قملة منك وقملة مني»، ليسهل على صاحبه إقناعي بإجراء مقابلة حول مهنة الفداوي التي دفنتها مع أبي، وسيَر العرب التي نسيتها مع أمي...

هكذا انتهى العرض من دون أن تحصل كارثة الموت المباشر على الشاشة. ولم يكن جابر يعرف أن شهرته الجديدة التي تحقّقت بفضل الشاشة، تعني أن آلاف العيون، بل ملايينها، سوف تظلّ تلاحقه، وتبحث عن مواصفات الفأر فيه: لاَحَقَتْه العيون. لاَحَقَتْه الأصابع. رَشَقَهُ الأطفال. هربتْ منه النساء. صار يضحك عندما يقصد البكاء. ويبكي إذا كان ينوي الضّحك. صاروا يشيرون إليه. ينادونه. يلاحقونه. يَمَسُّونه. يصفّرون له، من السّقف، من الأبواب، من النّوافذ. يزيدون في سيولة روحه، وفي انسياب الحشرات اللّزجة بالملايين على جسمه:
«يا فار الدَّانتيلاَّ! يا قنبع! أين مريم؟ أين البهبهاني؟ أين تختبئ جانيت؟».

مَكمن الجبن في شجاعة المنتحرين

لقد رآه شهود عيان عندما قصد شاطئ حلق الوادي وخلع صَنْدَلَه فقط، كأنه يدخل مكان عبادة.
أأَدرَكَ جابر، بعد الفرجة، أن حياته الخاصة لم تعد له، بل صارت ملك شخص يصوّرها له، فكفّ عن الإحساس بأنه مقيم في جسده، وتوزّع على كلّ زاوية وكلّ عين؟ أم أنّ الرّائحة هي التي سكنت جسده؛ رائحة القزم التي نقَلَتْه إلى رائحة الجرذ، فأكثرَ من الاغتسال والاستحمام، وبات يغازل المياه المالحة عن كثب، ويتحدّث عن الغمر العظيم الذي يذوب فيه الكائن ويتلاشى في ما لا يُحدّ؟
لقد بدأ هذا الإحساس يراوده بعد «رؤيا الخربة» التي هجس بها شاويش الجبس، ثم تبنّاها جابر، مؤكّداً أن مريم اجتازت نفق الظّلمة والتحقت بأبديّة النّور، لأنه ناداها النّداء المحظور، عندما وقع في أَسْرِ قزم، أغراه بوجود

غرفة زرقاء، ذات مفتاح أزرق، محظورة في الحكايات، ونهاه عنها حتى يزداد فضوله، ويلتفت عائداً إليها، من أجل لقاء آخر محظور، لكنه يمكّنه من فرصة لتحقيق اللقاء الأخير؛ لقاء الرّوح في أبدية النّور، وهو الذي يدّعي أنه رآها . . .

وهكذا توغّل في الموج . . .

انتبه بعض السّابحين، وضحكت بعض السابحات : رجل ينوي السّباحة بكامل ثيابه ! كانت خطواته الثقيلة واثقة. تقدّم نحو العمق المتموّج، بعينين تواجهان الشّمس. كان ظلّه ينكسر على سطح الماء وراءه، وما بعد الوراء هاجس يدفعه نحو السّيولة، إلى ما بعد المرئي واللامرئي، حيث نور الأبدية، ودهاليزه ذات الصُّور السوداء.

«لم يبق سوى صندله على الشاطئ. . . »، هكذا نُقل إليّ الحدث في البداية. ولقد أثَرْتُ استياء الآخرين واستنكارهم عندما أمرتهم بتنفيذ ما سمّيته «الوصيّة» :

- كفّنوه بالدانتيلا قبل إعادته إلى قريته !

ولم أكن أسخر. كنت في حاجة إلى فكاهة سوداء تغطي محاولة انتحاره البيضاء. لا لشيء إلا لكوني لم أعد أحتار باحثاً عن مكمن الجبن في شجاعة المنتحرين الذين يتخلّون عنّا، هكذا، بسهولة، ويفلتون .

ثبات ونبات

في أوّل زيارة إلى المستشفى الذي يقيم فيه جابر، بعد محاولته الانتحار غرقاً، وجدت في غرفته شخصاً أجنبيّاً يجلس قرب سريره. لم أكد أدخل حتّى صاح جابر :

- لا ، لا ، يا مستر هامِّتْ، لا تتركهم ! لا أريد رؤيتهم ! أخرجهم !

بادلني المستر هامت ارتباكاً بارتباك والتفت مخاطباً جابر :

- لكنه وحده ! انظرْ إنه وحده !

عاد جابر إلى الصياح :

- لا، لا ، لا ، فليخرجوا؛ يريدون قتلي مرة أخرى !

وضع المستر هامّت يديه على كتفي جابر محاولاً تهدئته :

- ولكن، عمّن تتحدث؟

- هؤلاء . . . لا أريدهم ! قلْ لهم إنني ما زلت أنوي العيش، أخبرهم يا مستر هامّت !

كان جابر يشير إليَّ ساخطاً بأصابعه العشر :

- هو، القزم، العينوس، الجرذ، عمر، شمس، العريفة ، دليلة، البهبهاني، بوسطل. . . كلهم. . . كلهم !

ترجّاني المستر هامّت أن أنسحب حتى يهدأ جابر. وبعد حوار سريع خارج الغرفة، قرّرت الانسحاب، غير أنّ المستر هامّت ألحّ وهو يودّعني :

- يسرّني التعرّف عليك ما دامتْ لك علاقة، أنت أيضاً، بشمس القراميد والعينوس، هو ذا عنواني ورقم هاتفي.

وفي أوّل اتّصال سألني عن حكاية دَفْعي بجابر إلى الموت في أكثر من مناسبة، كما يدّعي جابر نفسه. فأكّدتُ له

أنه مسكون بهاجس السّيرة الشعبيّة، وكان يختلق ميتات متكررة من أجل توالد الحكاية وتوتّرها، بنَفس تشويقي شهرزادي، مع كآبة أكثر ونجاح أقل؛ هذا كلّ ما في الأمر!

وعندما طمأنني المستر هامّت على حالة جابر، قلت له قبل إنهاء المكالمة:

– من الواضح أن نهايته الحقيقية هي في «الثبات والنّبات حتّى مجيء هادم اللذّات...»، تماماً كما تقول خواتم الحكايات!

وجئتَ تزورني في وقت مناسب للشّماتة؟

لمَ كلّ هذا العنف؟ هل ابتُكرَت فكرةُ «الكاميرا الخفيّة» من أجل استغلال ضعف الكائن وخوفه من الصّراع الدائم بين السلطة والرغبات؟

سافرتْ مريم إلى الشرق، مرّة أولى، ولم تنجح. والكاميرا تعرف ذلك. والذين وراءها يعرفون ذلك؛ لقد فتّشوا ونقّبوا في تفاصيل مساعيها ومحاولاتها.. يجيء وكيل مصري، وسيط صُلْح وخير. وهو مطّلع تمام الاطلاع على تفاصيل قصّتها وفشلها هناك. يغريها بعرض جديد: فلان أرسلني إليك... ألحان جديدة... كلمات... أوبرا... عليك بتجهيز أغراضك إذا كنت موافقة. السّفر يوم الجمعة، السّاعة الرّابعة بعد الظّهر... تقرّر مريم تأجير شقّتها أجرة طويلة المدَى. المستَأجر جاهز. التأشيرة جاهزة. حقيبتها، نظّاراتها، ابتسامتها، ارتباكها. الكاميرا دائماً وراءها. إلى المطار. الرّحلة مصريّة فعلاً. الكاميرا وراءها. تسلّط على لوحة مواعيد الإقلاع. الكاميرا لا تتوقّف. مريم لا تتوقّف. تصعد إلى الطّائرة... تصل إلى القاهرة... لا أحد.

لا أحد يستقبلها. تسأل. لا أحد يريدها. الكاميرا وراءها. الوكيل المصري يتبخّر في الزّحام...

تعود إلى بلادها؛ متألّمة، منهارة، باكية...

الكاميرا وراءها، تُسلّط على سلّم الطائرة...

الكاميرا لا تتوقّف. وراءها. في الطّريق. في معركة من أجل استرداد شقّتها. والمستأجر يرفض الخروج. معركة. وساطات. أموال ترضية... مريم تفقد صوتها. الكاميرا تُسلّط عليها، مريضة، نائمة في المستشفى...

وبعيداً عن الكاميرا، ملأ الحدث وسائل الإعلام الأخرى: «المطربة مريم حسن تفقد صوتها... المطربة مريم حسن، بعد ثاني محاولة فاشلة، تعود إلى البلاد»، تكتب عنها الصّحف. تقرر اعتزال الغناء. تكتب عنها الصّحف. تبثّ الإذاعة والتلفزة أغانيها القديمة والجديدة بتواتر يخفّ كلّ يوم، كلّ يوم، كلّ يوم... حتى ينام صوتها في الأرشيف.

زرتها في المستشفى. عرّفتُها بنفسي. هجمت عليّ. أنشبت أظافرها في وجهي وفي يديّ. بكت: «لماذا تركتني كلّ هذا الوقت، وجئت تزورني في وقت مناسب للشماتة؟ لماذا؟»، جاء الممرضون وأخرجوني. خرجتُ إلى شوارع المدينة. الجدران عالية، عالية، البنايات، الأشجار. وفي كلّ يوم أقرأ شائعة جديدة: «ماتت بأزمة قلبيّة»، عدت إلى الاتصال بها هاتفيّاً في المستشفى. أخبروني أنها تعافت وعادت إلى بيتها. أخيراً، وبعد تردّد، حزمت أمري، وقرّرتُ زيارتها في البيت. استقبلتني هادئة، هذه المرّة. سألتها ممازحاً لكن بخبث:

- ألا يمكنني التفرّج على بيتك؟
- تفضّل !
(إذاً هكذا . . . الصّالون، المطبخ، الحمّام، غرفة الضّيوف، غرفة النوم بتفاصيلها . . . هي غرفة الشموع ! كل ذلك الألم ! أين الخزانة ؟ ها هي ذي ! كيف حشرت جابر فيها؟ الشّرفة ! ليس هناك لحاف أبيض. الأسد لا يزأر. أجلس على . . . الأريكة !)
- شقّتك جميلة ! تطلّ على حديقة البلفدير . . .
- نعم . . . سأعدّ القهوة .
(كان جابر هنا ذات يوم. وهذه هي الأريكة)
شربنا القهوة . بابتسامة مرّة قالت لي :
- تريد أن أقرأ لك فنجانك ؟ تعلّمت ذلك من أمّي !
- أين أمّك الآن ؟
- توفيت، يرحمها الله !
- لا بأس. يمكنك قراءة الفنجان .
عادت إلى ابتسامة ذاوية سرعان ما غطست في الفنجان :
- فنجانك مشوّش. لكن، فيه طريق طويل وكثرة عراقيل، في آخره كلب، والكلب صديق يمدّ لك يده بالخير. عندك لمَّة، واللمَّة فرح بعد أن تسمع بمريض وفرشه على بياض. أنت شخص يبحث عن نفسه في الآخرين. ومع ذلك يؤلم الذين يحبّهم، عادة. يرفض وجهه المتكرّر ويبحث عمّا يميّزه ويعزله عنهم. تبدو متسامحاً مع أي تنوّع إذا انساق وراء هواجسه . . .
سألتها مقاطعاً :
- حتى الجنون ؟
- حتى الجنون .
- أتقرئين فنجاناً أم تبحثين عن تحليل الشخصية؟
- لا بدّ من أن أسألك عن برجك أيضاً !
انتهزتُ فرصة مرحها الظّاهر، وقرّرت الانتقال إلى الأسئلة التي جئتُ من أجلها :
- لست متزوّجة الآن ؟
- انتهىَ الأمر .
- وماذا عن رحلتك ؟
- لا تُذَكّرني بها .
- كانت مؤلمة ، أليس كذلك ؟
- نعم .
- لكن غيرك نجح . . .
- مضاربات . . . سمسرة . . . جسد . . . فلوس . . .

- هل القضية هكذا فقط ؟
- وماذا تظنّ ؟
(لم أجرؤ على مصارحتها : أهذا هو الواقع فعلاً ، أم أن إمكاناتك يا مريم محدودة ، وأنّ صوتك ، أداءك ، موهبتك ، متواضعة إلخ . . . قررت الانتقال إلى موضوع جابر مباشرة) .
- جابر . . . المسكين . . . لقد . . .
- ماذا حدث له ؟
- هو في المستشفى . . . كاد يموت . . . حاول الانتحار . . .
- الانتحار ؟ لماذا ؟
- من أجلك طبعاً !
- ما زال يحبّني ؟
- أكثر مما كان ! وأنت ؟
- لست أدري . . . ما رأيك ؟
- لا تنتظري رأيي . . . إنه في حاجة إليك !
- لكن . . .
- فكّري ! أنت أيضاً في حاجة إليه يا مريم . . .
- كيف عرفت ؟
- ليس من الفنجان طبعاً !
وتركتُ لها عنوان المستشفى . . .

حكاية لاحقة عن طفل صانع للصُّوَر

انتظرتُ شفاءه قرابة أسبوع حتى أعلمني المستر هامّت بتحسّن حالته ، وذلك بعد نقله الضّروري إلى المستشفى المخصّص للأمراض العصبية . اتّصلتُ بمريم ، مرة ثانية ، لأُعْلمَها بالعنوان الجديد ، فأبدت رغبة في زيارته . وعندما زرته بدوري بَدا لي أكثر هدوءاً ، واستقراراً نفسيّاً . كَان احتفاؤه بوجود المستر هامّت ، وامتنانه له ، واضحيْن ، لكنه لاح مسيطراً على مشاعره وهو يخبرني دفعة واحدة :
- مريم كانت هنا ، سنتزوّج قريباً .
انتهزت الفرصة ، وقلت له مداعباً :
- أرأيتَ أنّ لي دوراً في فرحك !
- بالعكس ، كلّ الفضل يعود إلى المستر هامّت . لقد أقنعني بأنّ تحقيقي لذاتي لن يتمّ إلا بالعمل وإنهاء حالة العطالة ؛ هو الذي أنقذني في السّابق وسيساعدني في المستقبل . . .
- كيف ؟
- بدأت الفكرة بالمزاح ، وانتهت بنا إلى الجدّ.

تدخّل المستر هامّت قائلاً :
– حدّثني جابر عن مشروع فتح دكّان لبيع الثّياب المستعملة ، فشجّعته وأبديت استعدادي لمساعدته . . .
سألتُ المستر هامّت محاولاً استكشاف خلفيّة الصّفقة :
– وماذا عن تلك السِّيَر الشعبية؟ لقد أخبرني جابر أنّك تودّ تسجيلها بروايته . . .
– آه ، تنهّد المستر هامّت ، من سوء حظّي أن مرضه لم يأت في ذاكرته إلا على تلك السِّيَر الشعبيّة ، هل تحالفْتَ مع مرضك ضدّي ، يا مستر جابر ؟
– أبداً يا مستر هامّت ؛ هل تذكر البدْلَة السَّفاري التي ستَرْتَني بها ذات يوم ، وأنا أقصد العاصمة ؟
– أوه! «يَسْ!» أنت تذكّرني بتلك الرحلة العجيبة ! كنتُ أعجب وقتها لرؤيتك شخصين في واحد !
– ماذا ؟
– نعم ! كنتَ وقتها تصرّ على إقناعي بوجود قزم معنا في السيارة ، لا يكفّ عن استفزازك ، فما كان منّي إلا أن جاريْتُكَ في كلّ شيء !
– في كلّ شيء ؟
– يَسْ ، مايْ ديرْ جابر !
– حتّى في وجود العينوس ؟
– بالنسبة لوجود العينوس ، نُو برُوبْلمْ ! كنّا نختلف في التوقيت فقط !
– التوقيت ؟
– يَسْ ، مستر جابر ! أنا كنت أتحدّث عنه كظاهرة انقرضتْ في بلادكم ، أمّا أنتَ فكنتَ تبدو معايشاً له في الماضي ! لكنّك ما زلت تذكر تلك البدلة السّفاري كما قلتَ . إنها بدلة سافرتْ أكثر منك ؛ لقد جبتُ بها قسماً كبيراً من إفريقيا !
– ما زلتُ أحتفظ بها حتى الآن ، ومع أني أضعت عنوانك سهواً ، فقد كنتَ كريماً في الاتّصال بي مرّة أخرى ؛ كيف توصّلت إلى ذلك ؟
– لكنك شَغَلْتَ وسائل الإعلام في المدّة الأخيرة يا مستر جابر !
– آه !
– نعم !
بدا على جابر أنه يلحّ على موضوع تلك البدلة ، على الرغم من تشعّب الحوار في كلّ اتّجاه له علاقة بالماضي . وسرعان ما عاد إلى الحديث عن البدلة :
– قررتُ أن أعلّق بدلتك في دكّاني لكي تكون هي القطعة الأولى . لكنني لن أبيعها ؛ سوف أجعلها شعار المحلّ وتميمة الحظّ !
ضحك المستر هامّت عالياً ، وعلّق قائلاً :
– هذا لطف منك يا مستر جابر ! يُو آرْ فيري جَنْتل !
أحسست بأنني خارج الصّفقة ومستبعد من الحوارَ . اضطررت إلى الصّمت بين إحباط وسخط . وعندما استأذن المستر هامّت للخروج التفتَ نحوي قائلاً :

– لم نجلس حتى الآن للحديث، هذا مؤسف ! أنا أهتمّ بالآداب العربية أيضاً! ألم تُترجم أعمالك إلى الإنجليزية ؟

فتدخّل جابر ساخراً :

– لم ينته من ترجمتها إلى اللغة العربية بعد !

تساءل المستر هامّت مندهشاً :

– العربية ؟ كيف ؟

– لقد انتهى من حكاية «شمس القراميد» ويريد حكايتي الآن !

– أوه ! «إكْسلَنْتْ !» لا بدّ من أن نلتقي إذاً . . .

خرج المستر هَامّت وتركني وجهاً لوجه مع جابر، أخيراً . قلت له ممتعضاً :

– أراك تبالغ في إنكار دوري، وتسخر من أعمالي أيضاً !

– أيّ دور ؟ هل هو إهمالك لي، واستخفافك بموتي ؟

– لكنني الوحيد الذي عملتُ على إنقاذك !

– بل دفعتني إلى الموت، ببرودك ، مراراً !

– دُنُوُّك من الحافات هو الذي فعل بك ذلك، يا جابر، ألم تخبرني بأنك أصبت برُهاب السّقوط من النّوافذ، وخاصة عندما تكون على عتبة النّعاس؟

– نعم أخبرتك بذلك ؛ لكنني كنت أراك في كلّ نفق مظلم .

– هذا لا يناقض كلامي ؛ ففي آخر كل نفق مظلم هناك نور الأمل .

– وهل تسمّي ما وصلتُ إليه أملاً ؟

– كيف تنكر ذلك ؟ ألم تزفّ لي، من قليل، نبأً سارّاً؟

– تقصد مريم ؟

– طبعاً ! أليست النّور كلّه، بعد رحلة الأَنفاق المظلمة ؟

– آه . .

– اسمعْ ! حتى إذا كانت عودتك، بل عوداتك ، من الأقاصي المظلمة، فاشلة كما تدّعي ؛ لا تنكر أنها كانت دليلك أيضاً إلى استعادة الرّوح والتّصالح مع المكان؟ صدّقْ أن مجرّد مواجهتك وقمعك كانا سيُوديان بك . . .

– تبدو متأكّداً من ذلك . . .

– أما زلت تتذكّر كيف أصرّ عمر على إعادتك إلى كاف الحجر ؟

– نعم .

– ماذا كان سيحصل لك لو تمكّن من إكراهك على العودة ؟

– لا أدري .

– ليس أكثر من الصورة التقليدية لمجنون القرية الرّائي .

– شكراً !

– السّبب أنك كنت تستبطن البطولة . . .

- من دون أن أكون بطلاً . . .
- هذا صحيح . تصوَّرْ لو أنني انسقت وراءك باسم الماضي وباسم تعليمك لي ذات يوم، ماذا كان سيحدث . . .
- ماذا ؟
- لقد ادّعيت أنك علّمتني، وتبنَّيتني أيضاً، والحال أنني، أنا الذي تبنّيتك منذ قدومك إلى العاصمة - برغم أنني لا أحبّ كلمة التبنّي هذه - لنقُلْ إنني تفاديت تبنّيك لي - وهو الوجه الآخر للصورة ! - لأبرهن لك أنك لن تعود إلى ذاتك متصالحاً معها، وبالتّالي مع زمانك ومكانك، ومع صورتك المتبدّلة فيهما، إلاّ إذا أحسستَ أنّ ذاتك مهدّدة، وسعيت إلى قتل حكاية الخطر التي نسجَتْ خيوطها مخيّلتُك، من أجل تبرير القتل . . . أو الانتحار .
- ماذا ؟ ماذا تقول؟ لم أفهم شيئاً! هل تعدّ لي فخّاً آخر؟ لا تقل لي إنك صالحتني مع مريم أيضاً !
- لا أدّعي ذلك، لكنني قرّبتك منها فعلاً !
- كيف ؟
- أوّلاً؛ يا جابر، لم يكن عذابك بسبب مريم، بل كان متأتّياً من صورة نجاحها، في ذهنك . وكان نجاحها، وبالتالي ابتعادها عنك أكثر، يزيدان في انتفاء التّواصل . ثانيا؛ كان لا بدّ من أن تَخْبُوَ تلك الصّورة - أي صورة مريم منتفجة - ليخفّ البريق : بريقها، ثم بريقك أنت، المقتبسُ من نورها إلى فَتيله . وهكذا تلتقيان في نقطة، سمّيتها أنتَ «الفشل»، لكنّني أسميها منطقيّاً (انتبهْ !) «مبدأ الثالث المرفوع» . . . أوَ انتفاء الشرط المانع !
- لا أكاد أفهم . ولا أريد الفهم أيضاً . أريد العمل والكفّ عن الكلام . لقد حطّمني الكلام . ألَمْ أهرب من قريتي بسبب الكلام؟ أنت تستخدمني مبرّراً لعطالتك الشخصية .
- وهل شكوتُ إليك العطالة ؟
- سمِّها ما شئت . . . عطالة أو كتابة . . . كلْتاهُما بيع كلام !
- استمعْ إليّ يا جابر ؛ سأوضّح لك فقط معنَى انتفاء الشّرط المانع .
- عدنا إلى الكلام . . .
- هو ذا : أنتَ، ببساطة، لم تكن تحبّ مريم، بل كنت تحبّ صورتها . وأرجو، هنا، أن تفهم كلمة «صورة» بمعنى انعكاس الآخر في الذات، ليس كما هو، بل كما نريده، أي كما نتصوره لنا، وعندما تحطّمت صورة مريم عدتَ إلى ماضيها كي تمتلكها انطلاقاً من البداية . أما هي فكانت ترتاح إليك ولا ترتاح إلى صورتك . غير أن رفضها لصورتك، ومقاومتها لها، جعلاها تسعى إلى تحقيق صورتها الشخصية؛ أي أن صورتك دفعتْها إلى صورتها . وعندما تهشّمت صورتها على محكّ التّجربة، عادت إليك في اللحظة المناسبة؛ أي في لحظة تحطّم أوهام صورتك على فراش هذا المستشفى ! صدّقني أن ابْناً تُنْجبانه من شأنه أن يكون صانع صُوَر!
انتفخت عروق جابر، واحمرّت عيناه، ولاح متردّداً بين الانفَجار والانهيار، صائحاً :
- أرجوك ! هل تهيّئ لي فخاً آخر ؟ هل تدفع بي إلى موت آخر؟ وبالكلام هذه المرّة ! أرجوك، أريد أن أرتاح، أريد أن أنام، أرجوك، أرجوك، أرجوك . . . حتى المستر هامّت لا يتكلّم هكذا، إنه مريح . . . مريح . . . مريح . . .
أدركتُ، متأخّراً، أنني جانَبْتُ آداب الزّيارة ومراعاة حالة جابر، فانسحبت مهدّئاً خاطره، ومرتبكاً بدوري . . .

مخاطر العين

تحرّك جابر معتقداً أنه يستجيب لنداء يأكل عظامه ويهيج أعصابه، من أجل استكمال حلقة مفقودة في سلسلة الأسلاف، من دون الخضوع لنواميسهم والاستسلام لتكرار مآثرهم. ولعلّه بذلك كان أقرب إلى استبطان السِّيَر، وتمثّل حيوات أبطالها، منه إلى تكرار روايتها.

أما المرأة فقد شاء أن تكون محرّكة للأبطال، متدخّلةً في سيرورة الأحداث، إلى درجة جعلتْه يترك لها المبادرة دائماً، مهما كانت الخسارة، علّ تلك الأحداث تتّخذ مساراً قدرياً لا يكون له ضلع في وجهته. وكأنّ المرأة التي تنتخبها الحياة لأيّام البطولة واشتعال القلوب، لا يمكن لها التجلّي في صورتها المكتملة إلاّ تحت التراب أو في بطون الكُتب.

غير أنّ مريم خشيتْ أن تظلّ مجرّد قصيدة أو أغنية، تكتنز بلحظتها وتتلاشى مع تلاشي توهّجها. فسعت إلى مثال، بحث عنه جابر ولم يجده، لتلتقي به في نقطة الفشل تماماً.

عودةً جابر إلى الماضي ازدادت كثافة وتجلّياً فيما بعد لحظة فشله واستقراره، أي بعد زواجه من مريم وإصراره على دعوة أمّه من كاف الحجر لتقيم معه، وتشهد ميلاد حَفيدتَها الأولى «آسرة»، ثم تنطفئ في لحظة مخاض مريم تحديداً، وإطلالة الحفيد المبكّر «آسر»... آسر الذي ربّته جدّته ثمانية شهور فقط، وهو في بطن أمه، وجاء خروجه المستعجل من بوّابة الإمبراطور، وليس من بوّابة الخصب، إلى العالم، متزامناً مع انعطاف جدّته إلى عالم، يفترض جابر، أنه كان فيه (وتلك... تلك حكاية أخرى، على أية حال!).

كانت عينه، هي صندوقه الأسود الذي يسجّل كلّ حادث يصيب الجسم ويدوّي في الدّماغ، بما في ذلك سعيُه إلى ذروة الفرجة، أي ولوج صندوق الصّورة، لدخول كلّ البيوت، والتكاثر في الآخرين.

وإذا كان قد خسر عيناً، فمن المعروف أن العينين تتساعدان، وتستطيع عين واحدة أن تقوم بمهمّة الثانية – مع فقدان الاحتياط في هذه الحال، وكذلك: ضمن حقل رؤية أضيق.

لكن، هل يمكن الحديث عن عين ثالثة، متأتية من تأثير شخصية قابعة في القاع من طفولة جابر، هي شخصية العينوس؟ ولعلّها العين الثالثة التي تستطيع، في حالة جابر، أنّ تسكن فراغ العين المفقوءة؛ عين مسافرة، ذاهبة، آيبة، جوّابة آفاق؟

هنا يغدو السؤال متعلّقاً بمصير تلك العين...

لماذا استكان جابر في النهاية؟ أَمَعْنَى ذلك أنه، بكل بساطة، كان يعاني من مرض نفساني ثم شفي، أم أنه تراجع أمام مخاطر العين، وأمام الأهوال الناجمة عن ملاحقة نزواتها؟

حديث المفاجآت

مرّ زمن كاف لأتصالح نهائيّاً مع جابر، ربّما باسم الماضي مرة أخرى! غير أنه صارحني، في إحدى زياراتي، بأنني أستفيدُ حتّى من تحوّله إلى بائع روبافيكيا. قال ذلك وهو يمدّني بأفضل قطع الثياب التي كان يخبئها لي، بعناية لا تفوقها سوى عنايته ببدلة مستر هامّت الكاكية، متدليّة من السّقف، في أحلى علاّقة ثياب خشبيّة. ولم

يكن ليتعب أو يملّ من الردّ الدائم على زبائنه الذين يطلبون معاينتها عن قرب أو قياسها، بجملته التي باتت أثيرة لديه :

- لا، لا ، ليست للبيع، هذه كسوة البخت !

ولم تعد تلك جملته الوحيدة التي لا يسأم تكرارها . إذْ بات من اختصاصه، أيضاً، تكرار الحديث عن القطع النادرة، الغلاء، كثرة الوسطاء في هذه المهنة، سياسة العرض والطلب، انتقاء القطع الممتازة لزبائنها الممتازين، إلخ . . .

قال لي ساخراً :

- تصوّرْ ! حتّى صديقنا عمر القاسمي يذكّرني دائماً بأفضاله عليَّ !

- كيف ؟

- يعتبر أن شغلي هذا، نَبَع من الفكرة الأولى التي اقترحها عليَّ منذ وصولي إلى العاصمة قبل سنوات . . .

- أعتقد ، يا جابر ، أنه مارس مثل هذا العمل، واقترحه عليك؟

- قال لي : لو بدأتَ هكذا، من الأوّل ، لوفَّرْتُ على نفسك عذاباً طويلاً .

- هذه مشكلة عمر دائماً، إنه يخلط بين النّتائج والأسباب، وأحياناً بين الوسائل والغايات . . .

- أحياناً ؟ لكنّه شخص طيّب القلب إجمالاً .

- على أيّة حال، هو أيضاً يستفيد من هذا المشروع، كما يبدو . . .

- لنقُلْ إنه مشروع خيريّ للأصدقاء !

وطفق جابر يضحك، ثم عاد ليخبرني :

- هل تتصوّر ماذا اقترحتْ عليَّ مريم ؟

- ماذا ؟

- قالت لي، لماذا لا نفتح مشروعاً آخر، يدرّ ربحاً وفيراً ؟ بما أنك تجيد التّعزيم ، وأنا أجيد قراءة الفنجان كما تعلّمتُها من أمي، نفتح دكان عرافة !

- وأنت ، ماذا كان رأيك، ألم توافق ؟

- أنا ؟ ما زلت أفضّل ستْر النّاس بفلوسهم على تعريتهم بفلوسهم!

لكنّ الطرافة في حديث جابر مازالت تطلّ أحياناً من هواجس محتشمة بات يخشى الانطلاق معها كثيراً، أي إلى حافات أخرى . فيروي لي أطرف المفاجآت المتعلّقة بعالم الثياب المستعملة، وبأصحابها الأوّلين، والبعيدين وراء البحار . وكذلك المفاجآت المتأتّية من زبائنه، ولا سيما من النساء !

صار يتحفّظ تجاه أيّة كلمة من شأنها أن تذكّره بماضي حكاياته؛ ذلك الماضي الذي بات ينغلق عليه مثل صدَفَة . ولقد حدث ذلك ذات مرّة عندما قال لي مازحاً :

- تصورْ لو أن مفاجأة ما، تحدث، وتنسحب كلّ قطع الثّياب المستعملة طائرةً نحو أصحابها الأوائل، هكذا . . . فجأة ! تتطاير من دكاكين «الفريب» ومن أجسام لابسيها وهم في الشّوارع والمكاتب والمصانع والحقول . . . فيبقى هذا، نصف عار ، وذاك، بلا حذاء فقط، وتلك، من دون ورقة توت !

- أسأل عن مصيرك أنتَ وقتها!

– أنا شخصياً أقف عارياً تماماً، في دكّان خال ، متوسّطاً رفوفاً وعلاّقات فارغة ، لأبيع بضاعة الوهم !
ضحكتُ لطرافة الفكرة ، ولم أستطع مقاومةً تحريك الصَّدَفة :
– إنها لحكاية جديرة بخيال قزم !
رمقني جابر بعينه الوحيدة ، في حين لاحت عينه المفقوءة مثل ماضٍ تتحرّك فيه الأشباح . بانَ عليه انفعال مكتوم ، لكنه لزم الصمت ، ثم حاول تغيير الموضوع . . .
وعلى الرّغم من سعيي الدّائم إلى محاولة نسيان ماضي الصّدَفَة ، بمراقبة كلامي وعدم تكرار مثل تلك الملاحظة ، فقد حدث ، مرّة أخرى ، أنْ أشار جابر إلى حقيبة يد جلديّة ، نسيتْها إحدى زبوناته في الدكان . وأخبرني بأنه اضطرّ إلى فتح الحقيبة لمعرفة هُويّة صاحبتها ، ومحاولة إعادتها إليها ، أو تسليمها ، في أسوأ الأحوال ، إلى مركز الشرطة .
– هل تتصوَّر ماذا وجدت فيها ؟
– ماذا وجدتَ يا جابر ؟
– لم أجد هوية ، ولا بقية أموال ، ولا أيّ شيء من هذا القبيل ؛ فعلّقتها في الدّكّان ، علَّ صاحبتها تعود ذات يوم ، وتتعرّف عليها .
– إذاً ، فهي حقيبة يد فارغة . . .
– بل فيها سبع صور ، لسبع صبايا متفاوتات الجمال . . .
– معنى ذلك أنّ الثامنة هي صاحبة الحقيبة !
أدرك جابر طبعاً أنني ألمّح إلى قمر والصبايا السبع ، فغيَّر مجرى الحديث موضّحاً بنبرة جدّية مبالغ فيها :
– يبدو أنّ صاحبتها مسؤولة في إحدى الجمعيات النسائية ، لأنني وجدت ، أيضاً ، بعض إيصالات تسديد الاشتراك ، لكنها إيصالات مهملة ، ولا ذكر فيها إلاّ للمبالغ المدفوعة .
وعاد ليخبرني بأن مشروعه ناجح حتى الآن ، وأنّ هناك طلباً متزايداً على الثياب المستعملة بسبب غلاء الألبسة الجديدة ، خصوصاً أنّه يعمد إلى بيع القطع المنتقاة بعد فرزها وغسلها وكيّها ؛ لقد أصبح ذلك من اختصاص مريم قبيل زواجهما وبعده .
– يكفي أن يزدهر رأسمالي لتحدث معجزة أخرى !
– كيف ؟
– أحتاج إلى بضعة ملايين كي أتجاوز عقبة الوسطاء ، وأقتني البالات من الشركات الكبيرة مباشرة .
– أعتقد أنك قد تنعم بمفاجآت أخرى يا جابر !
– أستطيع عندئذ أن أحصل على أجمل القطع وأجودها قبل عمليات الفرز .
– بل أقصد أن البالات البكر قد تخبّئ لك مفاجآت من نوع آخر . . .
– مثلاً ؟
– هناك صورة لا تزال ترافقني منذ طفولتي : إحدى قريباتي عثرت على مبلغ خمسمائة دولار في جيب معطف أميركي !
بَدَا الاهتمام على وجه جابر وما لبث أن علّق مبتسماً :

– تكفي مثلٍ هذه الشائعة حتّى تندسّ أيدي كلّ الوسطاء في جيوب كلّ الشعوب المصدّرة لهذه الثياب . . .
سكتَ قليلاً وأضاف :
– لكنْ ، ما يعثرون عليه هذه الأيام لا يتجاوز بعض المحارم أو الأزرار .
أقصى درجات التساؤل والحيرة تملّكتني عقب آخر زيارة إلى دكّانه منذ أيام قليلة ، عندما أعجبني سروال فدخلت لأجرّبه في غرفة القياس . وبعد خروجي ، لم أتمالك نفسي دون أن ألاحظ له وأنا أغادر الدّكان :
– انتبهْ يا جابر ! ثمة ثقب موارب في باب الحجرة المخصّصة للقياس !

خاتمة

هكذا استكان جابر ، في النهاية ، إلى الهامش ، بعد أن تبنَّتْه الفرجة ، فصار أشهر من قدراته ، لكن من خلال الفشل . حاول ممارسة سلطته على الآخرين ، لكنّه عاد لينغلق على ذاته مثل تلك الصَّدَفَة التي يمكن أن تنفتح ، بمفاجأة ، على كفّ غوّاص ، أو على عين عابرة . . .
أما أنا فأتابع طريقي المزدحم بتناوب الأعراس والمآتم والمهرجانات والكُرة ، وبأبديّة زائلة في التسوّق ودفع الفواتير واستخراج الأوراق الرّسمية ، وقهقهة العين الصّامتة . . .
ومع ذلك أكتب ، من أجل قارئ نادر ، أو غير موجود ، ينتظر حتى يوجد أن تأتيه هذه الحكايات من خلال فرجة أخرى .
أليست عين الصّمت أنسب للاحتفاء بمن غابت ذكراهم ؟
وها هو ذا الصّيف مرة أخرى : عرق ، حرارة ، لزوجة ، رطوبة ، بحر ، أعراس ، مهرجانات ، حروب واتفاقات ، والحياة تمضي . . .
مررتُ بأرضي المائيّة المنزلقة لألقي على زوايا بنائها آخر نظرة ، بعد أن قرّرت بيعها بأبخس الأثمان ، كما جرت بي العادة في صفقاتي .
ذهبت لأعاين وأقدّر ما توصّلتْ إليه الأعمال النهائية للبنّائين الكسالى ، قبل صَرْفهم . قلت : أرى شاويش الجبس أيضاً ، لعلّه حفر بئراً أخرى ، أو خلع باباً لم يعجبه ، أو اكتفى بعزق أرض الحديقة الخلفيّة في الفيللا . . . لكنني لم أجده .
كان كوخه الخشبي خاوياً ، إلاّ من بقيّة أوراق وزجاجات فارغة ، وأعقاب سجائر ، بل الكثير ، الكثير من أعقاب السجائر الرخيصة . وعلى الألواح الخشبية التي بُني بها الكوخ ، من الداخل ، لفَتَ انتباهي وجود خربشات كثيرة ، بأكثر من لغة مستوردة عبر العالم الذي جاب بوسطل بعض بلدانه طلباً للحكمة النسبيّة !
قرأت : «لابدّ من أن أذهب كي أعود ، كلّ ذهاب هو غياب نسبيّ» ، وتمكّنت من تمييز أسماء نساء أجنبيّات خربش بوسطل أسماءهنّ في ليالي وحشته بين ألواح الخشب ، لكنّ الأكثر إثارة كان ذلك الرَّصف التنازلي لما يشبه صلاةً شخصيّة ، بخطّ بوسطل ، على الخشب :
«جئتُ يا إلهي ، ولم أقابلْ براهميّاً واحداً في الهند .
جئت يا إلهي ، ولم أدخّن غليوناً واحداً في أمستردام .

جئت يا إلهي، ولم أركض وراء كنغر واحد في أستراليا .
جئت يا إلهي، ولم أشرب الساكي في اليابان .
جئت يا إلهي، ولم أحتفل بعذراء واحدة في البرازيل .
جئت يا إلهي، ولم أشهد حرب عصابات واحدة في الهندوراس .
جئت يا إلهي، ولم أشاهد جبلاً جليديّاً واحداً في القطب .
جئت يا إلهي، ولم أستكمل رقصة الموت في أفريقيا .
جئت . . .
جئت . . .
جئت . . .
فهل أعود إلى كوخ، في أرضي، ولم أشاهد ثلاثة أرباع العالم؟»

غادرتُ المكان مشياً، وشعرت بحاجة متزايدة للمشي . فمشيت حتى خيّم الظلام . للذكرى؛ للذكرى فقط؛ قلتُ أمرّ بشبُّاك المنعطف الثالث، بعد المتجر الكبير . كانت السّاعة الليليّة هي ذاتها، بحرارتها ورطوبتها وصمتها المميّز لتلك الأحياء . ضوء خافت وستائر مُسْدَلَة . لا شك أن امرأة المنعطف الثالث، صاحبة البشرة الحليبيّة، فضّلت السّباحة في عرقها على الوقوع في شبكيّة عين متربّصة في الظّلام .
وحده الصّمت جعلني أعود إلى بيتي لأكمل حكاية «مملكة الأخيضر»، برغم الحرارة الخانقة . . الكلام ثرثرة في الرّيح .

---

* شاعر وكاتب تونسي يقيم في تونس العاصمة .

(1) فصلان من رواية له تحمل العنوان نفسه .